جـامعة اليــرمــوك

كـــليـــة الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

السِّيرة الذَّاتيِّة
في " كتاب الاعتبار"
لأسامة بن منقذ الكناني (488-584هـ).

The Autobiography

In kitāb al 'l'tibār

of 'Usāmah Ibin Munqith alkinani(488H-584H).

إعداد الطالب :

حسين علي رشيد الخمسان

إشراف الدكتور :

سالم الهدروسي

2015/2014

السِّيرة الذَّاتيِّة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في " كتاب الاعتبار"

لأسامة بن منقذ الكناني (488-584هـ).

إعداد

حسين علي رشيد الخمسان

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الآداب
تخصص أدب ونقد, جامعة اليرموك, إربد, الأردن.

وافق عليها

د. سالم مرعي الهدروسي ..... مشرفاً ورئيساً

أستاذ في النثر القديم,عباسي والأدب العربي القديم ونقده,جامعة اليرموك

أ.د. مخيمر صالح يحيى ..... عضواً

أستاذ في الأدب القديم والدراسات الإسلامية, جامعة اليرموك

د. عبدالرحمن محمد الهويدي ..... عضواً

أستاذ في الأدب العباسي، جامعة آل البيت

تاريخ مناقشة الرسالة

5 /8 /2015م

1436/10/20هـ

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى:

والدي الحبيب الذي رسم لي طريق النجاح بأطيب الكلمات.

والدتي الحبيبة التي كللتني بخالص دعائها.

أخواتي الغاليات على قلبي.

زوجتي الغالية التي وقفت إلى جانبي بصبرها الجميل.

أبنائي الأعزاء الذين قاسموني بعض العناء والمشقة.

أستاذي ومشرفي الدكتور سالم الهدروسي الذي طوقني بخالص وده.

الباحث

حسين علي رشيد الخمسان

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه, والصلاة والسلام على من لا نبي بعده, محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه, ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

يطيب لي, ويسعدني, وقد أنهيت إعداد رسالتي أن أعترف لكل ذي فضل- عليَّ- بفضله, فمن لا يشكر الناس, لا يشكر الله تعالى.

يثلج صدري أن أزجي وافر الشكر, وعظيم الامتنان **لأستاذي الفاضل الدكتور سالم الهدروسي,** الذي تفضل مشكوراً بقبول الإشراف على هذه الرسالة, وتحمله عناء المتابعة, ومشقة التوجيه, إذ رعاها منذ أن كانت بذرة, إلى أن غدت يانعة الثمر, فلم يألُ جهداً في تقديم النصح والإرشاد, وإبداء الملحوظات السديدة التي أسهمت في نضج هذه الرسالة.

كما يشرفني, ويزيدني حبوراً, أن أتقدم من عضوي لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور مخيمر صالح موسى, والدكتور عبدالرحمن محمد هويدي اللذين تفضلا مشكورين بقبول مناقشة هذه الرسالة, وتحمل عبء قراءتها, ومشقة تقويمها, مما أسهم في إثرائها.

والشكر موصول لكل من ساهم, ووقف إلى جانبيي في إنجازها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

حسين علي رشيد الخمسان

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
قائمة المحتويات.....	هـ
الملخص باللغة العربية	ح
المقدمة	1
التمهيد	6
أ-**المؤلف والكتاب:**	7
1-التعريف بالمؤلف.....	7
2-دوره السياسي والعسكري	15
3-مضمون الكتاب.....	22
4- قيمة الكتاب.....	29
ب- السيرة الذاتية في النثر العربي القديم	35
1-مفهوم السيرة الذاتية ونشأتها في النثر العربي القديم.....	35
أ- السيرة لغة.....	35
ب-مفهوم السيرة الذاتية اصطلاحاً.....	37
2-السيرة الذاتية ونشأتها في النثر العربي القديم	43
3-دوافع السيرة الذاتية في النثر العربي القديم.....	48

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول: دوافع السيرة الذاتية في " كتاب الاعتبار"

مدخل 52

1-رغبة المؤلف في كتابة سيرته الذاتية كما يراها, واستحضار جوانب النجاح والفشل .. 53

2-الاعتراف واسترجاع لحظات القوة والضعف..... 68

الفصل الثاني: اتجاهات السيرة الذاتية حسب مضمون " كتاب الاعتبار"

مدخل 82

1-الاتجاه الأخلاقي 83

2-الاتجاه الديني 87

3-الاتجاه السياسي والاجتماعي 90

الفصل الثالث: أبرز القضايا التي عالجها أسامة في سيرته الذاتية في " كتاب الاعتبار"

مدخل 97

1-الموت والحياة 98

2-الأنا والآخر 101

3-الذاتي والموضوعي 112

4-الذاكرة بين الحقيقي والمتخيل 114

5-البوح والاعتراف 117

6-الخضوع والتمرد 119

7-النماذج الإنسانية في "كتاب الاعتبار"..... 122

الفصل الرابع: تقنيات القص في " كتاب الاعتبار"

مدخل 132

أولاً:عناصر السرد..... 133

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ- السارد 133
ب- المسرود له / عليه 140
ج- المكان السردي 144
د- الزمان السردي 149
هـ- الشخصيات السردية 159
ثانياً: أساليب السرد 162
أ- البناء المتتابع 163
ب- البناء المتداخل 164
ج- البناء المتوازي 165
د- التضمين 167
ثالثاً: ادوات السرد 169
أ- الوصف 169
ب- الحوار 173
ج- التبئير والمُتبئر 176
د- الخطاب السردي 178
هـ- السرد الأدبي 187
و- سرد الخبر الأدبي 190
الخاتمة 192
المصادر والمراجع 194
الملخص باللغة الإنجليزية 206

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملخص

السيرة الذاتية

في " كتاب الاعتبار"

لأسامة بن منقذ الكناني (488 – 584هـ)

إعداد الباحث: حسين بن علي بن رشيد الخمسان

إشراف الدكتور: سالم مرعي حسين الهدروسي.

جاءت هذه الرسالة في مقدمة, وتمهيد, وأربعة فصول, وخاتمة, خصصت المقدمة للحديث عن أهمية الموضوع, ومبررات اختياره, والدراسات السابقة التي تناولت "كتاب الاعتبار" لأسامة ابن منقذ, وأفاد الباحث منها في دراسته, والمنهج الذي أتبعه في تناول بعض جوانب هذه السيرة.

نهض التمهيد بالحديث عن المؤلف والكتاب, إذ عرض للمؤلف من حيث: اسمه وكنيته ولقبه, وولادته, وأسرته, ونشأته العلمية والحربية, وشيوخه, ومؤلفاته, ووفاته, ودورة السياسي والعسكري.

أما الكتاب, فتناوله من حيث: مضمونه, وقيمته العلمية والأدبية, ثم عرض للسيرة الذاتية في النثر العربي القديم, فتناول مفهومها لغة واصطلاحاً, ونشأتها. واستخلص الباحث تعريفا للسيرة الذاتية.

عالج الفصل الأول: السيرة الذاتية في " كتاب الاعتبار", فعرض لدوافعها لدى المؤلف, من حيث رغبته في كتابتها؛ مستحضراً جوانب النجاح والفشل, ومعترفاً بلحظات القوة والضعف, باعتبار أن الذات؛ ينتابها الضعف والقصور والفشل أحياناً, كما يحالفها النجاح أحايين أخرى.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتناول الفصل الثاني اتجاهات السيرة الذاتية حسب مضمون هذا الكتاب, فبسط القول في:الاتجاه الأخلاقي, والاتجاه الديني, والاتجاه السياسي والاجتماعي.

وجاء الفصل الثالث؛ليناقش أبرز القضايا الأساسية التي عالجها أسامة بن منقذ في "كتابه الاعتبار", فعرض لـ :

1- الموت والحياة.

2- الأنا والآخر.

3- الذاتي والموضوعي.

4- الذاكرة بين المتخيل والاعتراف.

5- البوح والاعتراف.

6- الخضوع والتمرد.

7- النماذج الإنسانية في "كتاب الاعتبار".

أما الفصل الرابع, والأخير, فتناول تقنيات القص في " كتاب الاعتبار", فعرض لما يلي:

أولاً: عناصر السرد

ثانياً: أساليب السرد.

ثالثاً: أدوات السرد.

وأخيراً الخاتمة التي عرضت لأهم النتائج التي توصل إليها الباحث. ومن ثم قائمة بأبرز المصادر والمراجع التي أفاد منها في هذه الدراسة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم, وبعد:

فإن الباحث قد هدف من هذه الدراسة إلى تناول فن السيرة الذاتية عند أسامة بن منقذ في كتابه الموسوم بـ" كتاب الاعتبار".

تكونت الدراسة من مقدمة, وتمهيد, وأربعة فصول, وخاتمة.

خصصت المقدمة للحديث عن أهمية الدراسة, التي تمثلت في الوقوف على دوافع السيرة الذاتية, وبيان أهم اتجاهاتها, وإبراز القضايا الموضوعية والفنية التي تجلت في هذا الكتاب.

وكذلك عن مبررات اختياره؛ كونه يجسد شاهد مهماً على عصره بإيجابياته وسلبياته, فضلاً عن أن مؤلفه قد شارك مشاركة فاعلة في صنع هذه الأحداث, فتوخت هذه الدراسة إعادة قراءة صورة أسامة بن منقذ وعصره, وذلك من خلال استنطاق نصوص الكتاب.

واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي رصد النصوص المعنية وحللها, والمنهج التاريخي الذي نقد هذه النصوص, والمنهج السردي الذي عني بالبنية السردية, ومكونات السرد فيها.

والدراسات السابقة التي أفاد منها الباحث؛ إذ لم يجد – في حدود اطلاعه – سوى ثلاث دراسات, الأولى:

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بحث بعنوان " صورة أسامة بن منقذ من خلال سيرته الذاتية في كتاب الاعتبار", للباحث سعود محمود عيد الجابر, وقد نشره في المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية– العلوم الإنسانية, عمان, 2000.

خلص فيه إلى أن " كتاب الاعتبار" يمثل سيرة ذاتية رفيعة المستوى, صور فيها أسامة بن منقذ: أيام طفولته, وشبابه, وكهولته, وشيخوخته, وصلته بحكام عصره, ومشاركته في الدفاع عن الوطن العربي الإسلامي ضد الصليبيين, ويعد ذا قيمة تاريخية, وعلمية, وأدبية, إذ صور الأحداث السياسية المهمة التي جرت في القرن السادس الهجري في بلاد الشام, ومصر, والعراق, كما صور بعض جوانب الحياة الاجتماعية للعرب والصليبيين, بأسلوب قصصي ممتع, وممتلئ حرارة واقعية.

والثانية رسالة ماجستير غير منشورة, موسومة بـ" كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ دراسة تحليلية", للطالبة براءة محمود السقرات, وتقدمت بها إلى جامعة مؤته,2011.

جاءت في مقدمة, وخمسة فصول. تحدثت في الفصل الأول عن: مفهوم السيرة الذاتية والغيرية, ودوافع تأليف "كتاب الاعتبار", ودلالة عنوانه.

وتناولت في الفصل الثاني: حياة أسامة بن منقذ؛ اسمه ونشأته, وترحاله وتنقلاته, ومناقب الفرسان, والاعتقاد بالكرامات.

وخصصت الفصل الثالث لمظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي في " كتاب الاعتبار": العمران والسكان, والنشاط الاقتصادي, والنشاط الثقافي.

وعرضت في الفصل الرابع: لصور الإفرنج في " كتاب الاعتبار":

صورة الإفرنج, ومنزلة الفارس عندهم, وصورتهم في الحرب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الفصل الخامس, فعالجت فيه: البناء الفني في " كتاب الاعتبار" ؛ من حيث مستويات الأداء اللغوي, والمكونات السردية.

وخلصت إلى أن "كتاب الاعتبار", جاء نتيجة تفاعل أسامة بن منقذ مع بيئته, وما جرى فيها من أحداث وصراعات.

كما رصد هذا الكتاب النواحي الدينية, والسياسية, والاجتماعية, والثقافية آنذاك, علاوة على أنه جسد الأخر/ الإفرنج بإيجابياته وسلبياته, فهو بمثابة سيرة جمعية, اندمجت فيها الذات بالـ(نحن).

وأما الدراسة الثالثة, فهي–أيضاً– رسالة ماجستير غير منشورة, بعنوان "فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار أنموذجا" للباحث: حازم فارس علي أبو شارب, تقدم بها إلى جامعة الشرق الأوسط, عمان ,2011.

جاءت في خمسة فصول, أشتمل الفصل الأول على: مبحثين؛ المبحث الأول: مقدمة, تناول فيها : مشكلة الدراسة, وأهدافها, وأهميتها, وحدودها, ومنهجيتها, والدراسات السابقة.

وفي المبحث الثاني: عرض للحياة السياسية في العصر الأيوبي , وتطور الحياة العلمية والأدبية في هذا العصر.

وفي الفصل الثاني: عالج السيرة لغة واصطلاحاً, وأقسام السِّير, وتطور فن السيرة في الأدب العربي حتى العصر الأيوبي.

وفي الفصل الثالث: ناقش تطور فن السيرة في الأدب الأيوبي وأثر الحروب الصليبية في تطورها, مثل: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني (ت527هـ), والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لأبن شداد (ت539هـ).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وجاء الفصل الرابع: للحديث عن حياة أسامة بن منقذ.

وأما الفصل الخامس والأخير, فاشتمل على: دلالة العنوان , واللغة, والسرد والحوار,والواقعية, وشخصية الكاتب, والزمان والمكان, والنزعة القصصية.

وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها :

أولاً: إن كتاب الاعتبار من أعظم الكتب التي أجادت في إلقاء الضوء على الحياة العامة في الشام, ومصر في العصر الأيوبي, وفي تصوير الحياة الاجتماعية فيهما.

ثانياً: إن سيرة أسامة بن منقذ الموسومة بـ "كتاب الاعتبار", قد حققت شروط السيرة الذاتية إلى حد كبير, وهي أنضج ما وصلنا من الأدب العربي القديم حتى وفاته.

ولعل الاختلاف بين دراستي والدراسات السابقة ما يلي:

أولاً: ما قدمته من دراسة موسعة عن حياة المؤلف والكتاب, ولا سيما في الحديث عن دور أسامة بن منقذ السياسي والعسكري, ومضمون الكتاب وقيمته.

ثانياً: جاء الفصل الأول جديداً كل الجدة مقارنة مع الدراستين السابقتين .

ثالثاً: ما بسطتُ الحديث فيه عن اتجاهات السيرة الذاتية حسب مضمون "كتاب الاعتبار":

الاتجاه الأخلاقي, والديني, والسياسي والاجتماعي. فقد جاءت هذه المباحث مجتزأة ومبتسرة في الدراستين السابقتين.

رابعاً: جاء الفصل الثالث والموسوم بـ " أبرز القضايا التي عالجها أسامة بن منقذ في سيرته الذاتية في "كتاب الاعتبار", جديدا –على ما أعتقد– مقارنة بالرسالتين السابقتين.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

خامساً: توسع الباحث في الفصل الرابع توسعاً ملحوظاً –مقارنة بالدراستين السابقتين– من حيث المفردات والحديث عنها أيضاً.

وثمة مصادر ومراجع أخرى, أفاد منها الباحث, دونها في قائمة المصادر والمراجع.

وجاء التمهيد ليسلط الضوء على المؤلف والكتاب, فعرض للمؤلف: اسمه, وكنيته, ولقبه, وولادته, وأسرته, ونشأته, وشيوخه, ومؤلفاته, ووفاته, ودورة السياسي والعسكري.

أما الكتاب, فأشار التمهيد إلى : مضمونه, وقيمته العلمية والأدبية, ثم عرض للسيرة الذاتية في النثر العربي القديم؛ من حيث اللغة والاصطلاح, والنشأة.

وفي الفصل الأول: تناول الباحث: دوافع السيرة الذاتية في " كتاب الاعتبار", فأبرز رغبة المؤلف في استحضار جوانب النجاح والفشل, واعترافه بلحظات القوة والضعف.

وفي الفصل الثاني عالج: اتجاهات السيرة الذاتية حسب" كتاب الاعتبار", مركزا على الاتجاه: الأخلاقي, والاتجاه الديني, والاتجاه السياسي الاجتماعي.

وفي الفصل الثالث: ناقش أبرز القضايا الموضوعية التي عالجها أسامة بن منقذ في كتابه: كالموت والحياة, والأنا والآخر, والذاتي والموضوعي, والذاكرة بين الحقيقي والمتخيل, والبوح والاعتراف, والخضوع والتمرد, وبعض النماذج الإنسانية.

أما الفصل الرابع: فتوقف عند المصطلحات السردية في "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ, فتناول: عناصر السرد, وأساليبه, وأدواته.

وانتهت الدراسة بخاتمة, خلصت إلى أهم النتائج التي تمخضت عنها, وقائمة بأبرز المصادر والمراجع التي أفاد منها الباحث في دراسته.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التمهيد

أ- المؤلف والكتاب.

1- التعريف بالمؤلف.

- اسمه وكنيته.
- ولادته.
- أسرته.
- نشأته.
- شيوخه.
- مؤلفاته.
- وفاته.

2- دورة السياسي والعسكري.

3- مضمون الكتاب.

4- قيمة الكتاب.

ب-السيرة الذاتية في النثر العربي القديم.

1- مفهوم السيرة ونشأتها في النثر العربي القديم.

2- السيرة الذاتية ونشأتها في النثر العربي القديم.

3- دوافع السيرة الذاتية في النثر العربي القديم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ- المؤلف والكتاب

1- التعريف بالمؤلف

- **اسمه وكنيته ولقبه:** هو: أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن مُنْقذ الكناني الكلبي[1] الشَّيْزري[2]، وكنيته "أبو المظفر"[3]، و" أبو أسامة"[4]، و"أبو الفوارس"[5]، والكنية الأولى أشهر[6]، ويلقب بـ "مؤيد الدولة محب الدين"[7].

- **ولادته:** ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (488هـ/ 1095م)، كما ذكر في "كتابه الاعتبار"، حيث يقول "لقي في ذلك اليوم مقدَّم القوم علوانُ بن حراز ابنَ عمي سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد، رحمه الله، في الحصن، وهو تِربي ولِدَتي، ولدت أنا وهو في يوم واحد: يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة..."[8].

---

(1) انظر: ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله (ت/626هـ): معجم الأدباء, إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: فاروق الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 199، مج2، ص301-302.

(2) انظر: ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت781هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مج1، ص195-196.

(3) انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، مج2 ، ص303، ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج1، ص195، الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج8، ص245.

(4) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء: مج2، ص302.

(5) شاكر، أحمد محمد: مقدمة لباب الآداب، منشورات مكتبة السنّة، القاهرة، 1935، ص20.

(6) انظر:المصدر نفسه, ص20.

(7) انظر:ياقوت الحموي:معجم الأدباء, مج2، ص302، ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج1، 196، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج8، ص245.

(8) ابن منقد، أبو المظفر أسامة بن مرشد (ت584هـ):كتاب الاعتبار، تح: قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، 1987، ص144.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويروي ابن عساكر في تاريخه أن أسامه ذكر له أنه ولد في تلك السنة التي ذكرها[1]، ويقول العماد الأصفهاني –أيضاً–:" لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بدمشق، وسألته عن مولده، فقال: سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة"[2]، وكان مولده بشيزر[3].

– **أسرته:** كانت أسرته "من أهل بيت المجد والحسب، والفضل والأدب، والحماسة والسماحة، والحصافة والفصاحة، والفروسية والفراسة، والإمارة والرئاسة. اجتمعت فيهم أسباب السيادة، ولاحت من أساريرهم وسيرهم أمارات السعادة، يخلّفون المجد أولاً لآخر، ويرثون الفضل كابراً عن كابر"[4]، وهم أصحاب قلعة شَيْزر[5] وعلماؤها وشجعانها[6].

فبنو منقذ أسرة مجيدة، نشأ فيها رجال كبار، كلهم فارس شجاع، وشاعر أديب، وكانوا ملوكاً في أطراف حلب[7]، " بالقرب من قلعة شيزر، عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم، كانوا يترددون إلى حماة, وحلب وتلك النواحي، ولهم بها الدور النفيسة، والأملاك المثمنة، وذلك قبل أن يملكوا قلعة

---

(1) انظر:ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن عبد الله (ت571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995، ج8، ص90.

(2) الأصفهاني، عماد الدين (ت 597هـ): خريدة القصر وجريدة أهل العصر (قسم شعراء الشام)، تح: شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955، ج1، ص497.

(3) انظر:الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ): سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996، ج21، ص165.

(4) الأصفهاني: خريدة القصر، ج1، ص497.

(5) قلعة شيزر: تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم، تعد في كورة حمص، وهي قديمة، صالح أهلها أبا عبيد –رضي الله عنه– على الجزية سنة (17هـ).انظر:ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله (ت626هـ): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ج3، ص383.

(6) انظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج1، ص196.

(7) انظر:شاكر، أحمد محمد: مقدمة لباب الآداب، ص17.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شيزر، وكان ملوك الشام يكرمونهم، ويجلون أقدارهم، وشعراء عصرهم يقصدونهم، ويمدحونهم، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء"[1].

ورأس هذه الأسرة وزعيمها: أبو المتوَّج مُقلَّد بن نصر بن منقذ الملقب بـ "مخلص الدول"، كان رجلاً نبيل القدر سائر الذكر، رزق السعادة في بنيه وحفدته، مات بحلب في ذي الحجة سنة (450هـ)، وكان الشعراء يقصدونه ويمدحونه.

ثم ابنه: أبو الحسن علي بن مقلد جد أسامة الملقب "سيد الملك"، وكان أديباً شاعراً، وشجاعاً مقداماً، قوي النفس كريماً، مات سنة (475هـ).[2]

ثم ابنه: أبو سلامة مرشد بن علي –والد أسامة– الملقب بـ "مجد الدين" مات سنة (531هـ)، وكان فارساً شجاعاً، ثابت الجنان عند البأس، لا يرتاع، صالحاً دائماً على مرضاة ربه، ليس له شغل سوى الجهاد ونسخ كتاب الله عز وجل، وصيام الدهر، وتلاوة القرآن، وكان مغرماً بالصيد، حضر وقائع كثيرة، وفي بدنه جراح هائلة، ومات على فراشه[3].

أما أخوه الكبير، "نصر بن علي"، فكانت إمارة الحصن "شيزر" له، ومات سنة (491هـ)، وعن غير عقب، ولما حضرته الوفاة عهد بالإمارة إلى مرشد، فأبى فولّاها أخاه أبا العساكر سلطان ابن علي، وكان أصغر منه, وسلطان لم يرزق أولاداً في أول أمره، فاصطفى لنفسه ابن أخيه– أسامة ابن منقذ–، وكان يوليه عنايته، ويعهد إليه بكثير من المهام.

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج2، ص155.

(2) انظر:المصدر نفسه, مج2، 155.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص74.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثم رزق أولاداً في آخر أمره، فأظهر التجني على أخيه، وكان في الأمر بعض السر في حياة مرشد. وأما بعد وفاته، فقد صارح سلطان أولاد أخيه العداء، وأخرجهم من الحصن كرهاً في العام التالي سنة(532هـ)، وكان هذا من فضل الله عليهم، فنجو من القتل تحت أنقاض الحصن في سنة (552هـ).[1]

– **نشأته:** نشأ أسامة بن منقذ في كنف أبويه وعمه سلطان وجدته، في وسط أسرة من أعظم الأسر العربية. أكثر رجالها فرسان محاربون من الطبقة الأولى، رباه أبوه على الشجاعة والفتوة والرجولة، ومرّنه على الفروسية والقتال، فأضحى فارساً مغواراً، ومحارباً ثبت الجنان، لا تروعه النكبات ولا الرزايا[2] .

حتى لا "يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح مُعتبر، فكم لقيتُ من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربتُ بالسيوف، وطُعنتُ بالرماح، وجُرحتُ بالسهام –وأنا من الأجل في حصن حصين– إلى أن بلغت تمام التسعين"..."[3], وكان والده يتركه وركوب الأهوال والأخطار، فما ينهاه عن قتال، ولا ركوب خطر، على الرغم من إشفاقه عليه، وإيثاره له[4].

(1) انظر:أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان (ت665هـ): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النُّورية والصَّلاحية، وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج1، ص319 وما بعدها.

(2) انظر:شاكر، أحمد محمد: مقدمة لباب الآداب، ص20.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص182.

(4) انظر:المصدر نفسه, ص124–125.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكأني به كان يعده ليوم تتلاحم فيه الفرسان، وتتقارع فيه السيوف، حيث ترتعد الفرائص، وتضطرب القلوب، حتى تبلغ الحناجر، فينكشف النقع عن الأبطال والأسود؛ ولهذا لم ينهه عن مواطن القتال.

ولم يفته أن يروح عن ابنه، ولذلك كان يصطحبه في رحلات الصيد أينما ذهب، فأحب الصيد منذ نعومة أظفاره، وبرع فيه براعته في الشِّعر والأدب، فقد كانت غابات قلعة شيزر تغص بالوحوش الضارية، كالأسود، والفهود، والنمور,[1] وجل رحلاته كانت مع أبيه وعمه أبي العساكر سلطان، يقول أسامة بن منقذ في ذلك: "فأما ما كان بشيزر [من الصيد]، فكان مع الوالد –رحمه الله– وكان مشغوفاً بالصيد لهِجاً به، وبجميع الجوارح"[2].

وبقيت هذه الهواية تلازمه, فكان يخرج للصيد مع من يحل بديارهم من الأمراء والملوك: "ومن ذلك ما حضرتُه مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر–رحمه الله–، ومن ذلك ما حضرتُه بدمشق مع شهاب الدين محمود تاج الملوك –رحمه الله–، ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك –رحمه الله– "..."[3].

ولم يكتف أبوه بنفسه بتربيته، بل كان يحضر له الشيوخ الكبار ليعلموه هو وإخوته، فسمع الحديث، والنحو، واطلع على الشِّعر، وغريب القرآن، والتفسير، وعلوم البلاغة[4].

---

(1) انظر:ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص 163، 206، 207.

(2) المصدر نفسه, ص200.

(3) المصدر نفسه, ص200، 201، 202.

(4) انظر:شاكر، أحمد محمد: مقدمة لباب الآداب، ص21.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذن، كان أسامة بن منقذ أميراً يجالس الأمراء والقادة، وفارساً شجاعاً لا يهاب موارد الهلاك، ثابت الجنان، يؤمن ألَّا حذر من قدر، وذا رأي ثاقب، ونظر دقيق، صاحب مشورة وحكمة، وقائداً يورد جنده مواطن الأمن والسلامة، علاوة على أنه شاعر مبدع، وأديب فذ.

ويبدو من كتابه, أنه كان ذا اهتمام كبير بجمع الكتب واقتنائها, وما يدل على ما جاء في كتابه" الاعتبار":" وحز فينا ذهاب ما ذهب من المال, إلا ما ذهب لي من الكتب, فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة, فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت".[1]

تعود علاقته بصلاح الدين الأيوبي إلى سنة(570هـ), وحتى وفاته سنة (584هـ), وذلك عند عودته إلى دمشق, وتمتد هذه الفترة أربع عشرة سنة.[2]

وكانت علاقته به قوية, فأكرمه,وأحسن إليه, ورعاه بفضل جوده, وطوقه بجميل هبته وعطاياه, كما قدر رأيه الثاقب, فأخذ بمشورته, وأفاد من تجاربه, وخبرته في المصافات والوقائع.

وقد أشار أسامة بن منقذ إلى ذلك في "كتابه الاعتبار", وسجل إنعامه عليه, وحسن معاملته له, واعتراف صلاح الدين بسداد رأيه في حروب الصليبيين.[3]

---

(1) ابن منقذ, أسامة : الاعتبار, تح: السامرائي,ص58.

(2) انظر: ابن الأثير, أبو الحسن محمد بن محمد الشيباني(ت630هـ): الكامل في التاريخ, راجعة وصححه: محمد يوسف الدقاق , دار الكتب العلمية, بيروت ,ط4, 2002,مج9,ص339.

(3) انظر:ابن منقذ,أسامة :الاعتبار, تح:السامرائي,ص85 ,183 ,184.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **شيوخه:** تتلمذ أسامة بن منقذ على بعض من شيوخ عصره، في التفسير، وعلوم القرآن، والحديث، وعلوم العربية، ولعل من أبرزهم:

أولاً: والده مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ (ت:531هـ)، حيث كان ورعاً تقياً مجاهداً ناسخاً للقرآن، صواماً للدهر، حفظ القرآن وقرأ العربية[1]، ونشّأ أبناءه تنشئه فاضلة، ورعاهم رعاية صالحة، كان يطلب منهم أثناء رحلات الصيد قراءة آيات من القرآن[2].

ثانياً: أبو الحسن علي بن سالم السِّنْبي، سمع منه الحديث في سنة (499هـ)، وقد روى عنه حديثاً في أول كتاب (لباب الآداب)[3].

ثالثاً: أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة المتوفى سنة (503هـ)[4].

رابعاً: أبو عبد الله الطُّليطلي النحوي، وكان في النحو سيبويه زمانه, قرأ عليه النحو[5].

- **مؤلفاته:** ترك أسامة بن منقذ مجموعة من الأثار الأدبية والشِّعرية، بين مطبوع، ومخطوط، ومفقود، ولعل من أبرزها، ما يلي:

1. "كتاب الاعتبار"، وحقق غير مرة، وقد اعتمد الباحث في موضوع دراسته على النسخة التي حققها قاسم السامرائي.

---

(1) انظر :ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص75 ، 200، 206، 207،وانظر ترجمته في: الكتبي محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت764هـ): فوات الوفيات، تح: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، مج2، ص506.

(2) انظر :ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص207.

(3) انظر: ابن العديم,عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ):بغية الطلب في تاريخ حلب,تح:سهيل زكار,دار الفكر, بيروت,1988,ج3,ص1359.والذهبي:سير أعلام النبلاء,ج21,ص165.

(4) انظر :ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص107,وانظر ترجمته في: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت:911هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2005، ج1، ص271.

(5) انظر :ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص215، 216.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

2. البديع في نقد الشعر، عني بتحقيقه أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد,منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي, القاهرة,(د.ط),(د.ت).
3. ديوان شعر، حققه أحمد أحمد البدوي، وحامد عبد المجيد, عالم الكتب,بيروت, (د.ط), (د.ت) .
4. لباب الآداب، عني به أحمد محمد شاكر,منشورات مكتبة السنة,القاهرة,ط2 ,1987 .
5. المنازل والديار، حققه مصطفى حجازي, منشورات دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع, الكويت,ط2 ,1992.
6. كتاب العصا, حققه حسن عباس, منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, 1978.

وثمة كتب أخرى أشار إليها مؤرخوه، وهي بين مخطوط ومفقود، منها:

1. تاريخ القلاع والحصون.
2. أخبار النساء.
3. النوم والأحلام.
4. الشيب والشباب.
5. التأسي والتسلي.
6. نصيحة الرّعاة[1].

(1) انظر: بدوي, أحمد أحمد, وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة بن منقذ, عالم الكتب, القاهرة,(د.ط),(د.ت)، ص8. قيطاز، محمد عدنان: أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره (488- 584هـ، 1095- 1188م)، بمناسبة مرور تسعمائة سنة على ولادته، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص36 وما بعدها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **وفاته:** عاش أسامة بن منقذ ستاً وتسعين (96) سنة، كانت مفعمة بالمهالك والمخاطر، مليئة بالخبرات والتجارب، كلها جِد واجتهاد، حتى كان لهوها جِداً، فعلى الرغم من كونه أميراً، إلاّ أن حياته طغى مرها على حلوها، وعذابها فاق سعادتها، حتى وافته المنية في الثالث والعشرين من رمضان، سنة تسع وثمانين وخمسمائة (589هـ) للهجرة، ودفن شرقي جبل قاسيون على نهر يزيد الشمالي بدمشق[1].

2- دورة السياسي والعسكري:

تفاعل أسامة بن منقذ مع الأمكنة –على تنوعها واختلافها– تفاعلاً خصباً ثرياً, ابتداءً من مسقط رأسه قلعة شيزر, وانتهاء بالمدن والقرى الشامية والفلسطينية, والعراقية, والمصرية, فترك فيها لوحات قتالية رائعة, وبصمات جهادية جلية, إذ أبلى بلاءً منقطع النظير, سواء أكان جندياً مع عمه وأبيه, وغيرهما من الملوك والأمراء الذين ناضل في معيتهم, أم كان قائداً يدير دفة الحرب والمعارك وحدة مع العساكر ضد الإفرنج.

وقد جاء أدبه شعره ونثره, ولا سيما "كتاب الاعتبار" محملاً بهذه الرائحة العبقة, بما فيه من دلالات واضحة, بأحداثها الغنية, على الدور العسكري والسياسي الذي لعبه على امتداد حياة نافت على التسعين سنة.

وتبدت علاقته بمحيطه الزماني والمكاني, من خلال مشاركته الفاعلة في الحياة العسكرية والسياسية, وما حمله على عاتقه من دور في منتهى الخطورة, أداه في شجاعة وبأس, لا يثنيه عن

---

(1) انظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج1، ص199.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذلك شيء؛ لأنه يدرك أن الآجال مؤقتة, وأن ركوب الأهوال, وامتطاء الأخطار, لا يقدم ساعة, ولا يؤخر ساعة.

ويتجلى هذا الدور على امتداد سبع مراحل زمنية:

المرحلة الأولى؛ وتمتد من ولادته في قلعة شيزر سنه (488هـ), وحتى رحيله عنها سنه(522هـ), ومدتها (34)سنة, وهي أطول مرحلة, تعلم فيها فن القتال يافعاً,وكانت فيها أولى مشاركاته القتالية في وقعة أفامية, يقول:" وكان الغلام (أي أحد غلمان أبيه) لما وصل أحضره الوالد بين يديه, وقال: أي شيء لقيتم؟.

قال: يامولاي خرج علينا الإفرنج في ألف, وما أظن أحداً يسلم إلا مولاي.

قال: كيف يسلم مولاك دون الناس؟ قال: رأيته قد لبس وركب الخضراء.. وهو يحدثه, وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين. ووصلت بعده, فاستخبرني, رحمه الله, فقلت: يامولاي كان أول قتال حضرته, فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت.".[1]

ولعل هذه المرحلة, قد اقتصرت على المشاركة المبكرة في الفروسية, ومقاومة غزوات الإفرنج" فلهذه المشاركة المبكرة, شأن بليغ في تثبيت مكانة شيزر في وجدانه, مادام قد عرف فيها تحقيقاً لنزعة الذات في إثبات وجوده الاجتماعي, وتفوقه على أقرانه".[2]

وأشار أسامة بن منقذ إلى خطورة هذه المرحلة كونه ما يزال يافعاً, ولم يشتد عوده بعد, يقول:" قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب"الاعتبار" عجائب ما باشرته وحضرته, وشهدته من

---

(1) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص63 –64.

(2) سكر,راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, مجلة التراث العربي, اتحاد الكتاب العرب, دمشق,ع 47, نيسان, 1992,ص162.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحروب والمصافات, والوقائع, منذ كنت ابن خمس عشرة سنة, إلى أن تجاوزت التسعين, وما نالني فيها من الجراح, والمكاره, وذكرت ما شاهدته من إقدام الرجال, وعجائب تصرف الرجال".[1]

وقد حضر هذه المصافات في صحبة أبيه, وعمه أبي العساكر[2], وجمعة النميري[3].

المرحلة الثانية؛ وتمتد من رحيله عن شيزر والتحاقه بعسكر عماد الدين زنكي في الموصل سنة(522هـ), وحتى عودته إلى شيزر للمشاركة في الدفاع عنها أمام الفرنج سنة (532هـ), ومدتها (10) سنوات. [4]

والموصل مكان جديد بالنسبة إليه, إذ ألقى عليه مهمات عسكرية جسيمة, شارك في أدائها مقاتلون, أثار بعضهم ريبته. [5]

وقد تنوعت مشاركاته في هذه المرحلة, بين المشاركة الحقيقية في النزال والصراع ضد الإفرنج, يقول عن هذا الجانب:" فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق. ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق. فأقمت فيها ثماني سنين, وشهدت فيها عدة حروب, وأجزل لي صاحبها, رحمه الله, العطية والإقطاع, وميزني بالتقريب والإكرام".[6]

---

(1) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص226.

(2) هو: سلطان بن علي بن مقلد بن نصر الكناني, أبو العساكر, ولد بطرابلس الشام, وتعلم بشيزر, وولي إمرتها, وكانت له وقائع مع الصليبيين, توفي سنه(543هـ). انظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980، مج3،ص110.

(3) لم أعثر على ترجمه له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع, وقد ورد في كتاب الاعتبار, ص58,95,70,80...

(4) انظر: سكر,راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ,ص162.

(5) انظر: بدوي, أحمد أحمد, وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة بن منقذ, عالم الكتب, القاهرة,(د.ط),(د.ت),ص3.

(6) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص27.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبين الاستشارة وإبداء الرأي والنصح, يقول:" ثم إن رضوان وصل إلى صلخد".[1] وفيها أمين الدولة طغدكين أتابك, رحمه الله, فأكرمه وأنزله وخدمه. وملك الأمراء أتابك زنكي بن آقسنقر رحمه الله, على بعلبك يحاصرها. فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه. وكان رجلاً كاملاً كريماً شجاعاً, كاتباً عارفاً, وللجند إليه ميل عظيم لكرمه. فقال لي الأمير معين الدين, رضي الله عنه: هذا الرجل إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير. قلت: فأي شيء ترى ؟ قال: تسير إليه؛ لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك".[2]

ويمارس نفس الدورر في هذه المرحلة , عند عودته إلى شيزر, ومما يشهد على دوره القتالي في هذه المرحلة, قوله:" ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب, أنَّا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سرية من الإفرنج نحواً من عشرة فوارس, جاؤوا إلى باب المدينة قبل [أن] يفتح. فقالوا للبواب: أي شيء اسم هذا البلد؟ والباب خشب بينهما عوارض, وهو داخل الباب قال: شيزر, فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تَخِب بهم. فركبنا فكان عمي, رحمه الله, أول راكب وأنا معه والإفرنج رائحون غير منزعجين, فلحقنا من الجند نفر فقلت لعمي: على أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم أقلعهم, وهم غير بعيدين؟! قال : لا, وكان أخبر مني بالحرب في الشام إفرنج لا يعرفون شيزر؟ هذه مكيدة.

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق, وقال: امضيا اكشفا تل الملح [3], وكان مكمناً للإفرنج . فلما شارفاه خرج عليهم عسكر أنطاكية جميعه, فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبل

---

(1) صلخد أو صَرْخد: بلد ملاصق لبلاد حوران ,من أعمال دمشق, وهي قلعة حصينة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان,ج3 , ص401.

(2) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص53.

([3]) لم أعثر على ترجمه له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع, وقد ورد في كتاب الاعتبار,ص78,80.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ركود الحرب, ومعنا جمعه النميري وابنه محمود, وجمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة :يافرسان الخيل ! ولدي فرجعنا معه".[1]

أما ما يستدل به على صواب رأيه وحسن تصرفه في القتال, في قوله:" قلت: كان عمي عز الدين, رحمه الله, يتفقد من حضور فكري في القتال ويمتحني, بالمسألة. فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا, وبين صاحب حماة, وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضيع شيزر يحرق وينهب.

فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً, وقال لي: خذهم وسر اليهم. فمضينا نتراكض والتقينا بوادر خيلهم, فكسرناهم وطعنا فيهم, وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه.

ونفذت فارساً من أصحابي إلى عمي وأبي, رحمه الله, وهما واقفان ومعهما باقي العسكر ورجال كثير أقول لهما: سيرا بالرجالة فقد كسرتهم, فسارا إليَّ . فلما قَرُبا حملنا عليهم, كسرناهم, ورموا خيلهم في الشاروف, وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا, وعدنا بالنصر. فقال لي عمي: أي شيء نفذت تقول لي؟ قلت: نفذت أقول لك: تقدم بالرجالة فقد كسرناهم, فقال : مع من نفذت إليّ؟ قلت : مع رجب العبد. قال صدقت, وما أراك كنت إلا حاضر القلب ما أدهشك القتال". [2]

المرحلة الثالثة؛ تمتد من رحيله الثاني عن شيزر سنة(532هـ) إلى دمشق وتعاونه مع حاكمها معين الدين أُنُر, حتى رحيله عن دمشق إلى القاهرة سنة(539هـ) ,ومدتها(7) سنوات. [3]

---

(1) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص79 –80.

(2) المصدر نفسه, ص123 –124.

(3) انظر: سكر,راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ,ص6.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي هذه المرحلة يتصل بحاكم دمشق: معين الدين أنر, ويعتمد عليه هذا الحاكم في تصريف الشؤون السياسية , وقد نجح أسامة في ذلك نجاحاً رفع مكانته في دمشق. [1]هذا بالإضافة إلى الدور الحربي المتمثل في مواجهة الإفرنج. [2]

المرحلة الرابعة؛ وتمتد من رحيله الثاني عن شيزر سنه(539هـ) إلى القاهرة, وتعاونه مع الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله, ثم الظافر بأمرالله , حتى رحيله عن القاهرة سنة (549هـ), ومدتها (10) سنوات. [3]

وقد أكرمه الخليفة الحافظ, وعاش في كنفه في رغد من الحياة, ولما ولي الظافر ألقى بنفسه في خضم هذه الأحداث, حتى يروي المؤرخون أنه اشترك في المؤامرة التي انتهت بقتل الوزير ابن السَّلار.[4]

المرحلة الخامسة؛ وتمتد من رحيله عن القاهرة إلى دمشق سنة (549هـ) , وتعاونه مع نور الدين زنكي, حتى رحيله الثاني عن دمشق إلى حصن "كيفا" في ديار بكر على الفرات سنة (559هـ), ومدتها (10) سنوات. [5]

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) انظر: بدوي, أحمد أحمد , وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة, ص170-171.

(2) انظر:ابن منقذ, أسامة: الاعتبار,تح: السامرائي ص170-171.

(3) انظر : سكر, راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, ص162.

(4) انظر: بدوي, أحمد أحمد , وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة, ص4. ابن السّلار، هو أبو الحسن علي بن السلار، كان والياً على الإسكندرية. انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ج3، ص 196 وما بعدها.

(5) انظر : سكر, راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, ص162.

وكان اتصاله بحاكم دمشق نور الدين محمود زنكي[1], أكبر أبطال الحروب الصليبية, مرحلة مهمة في تاريخه في مقارعة الإفرنج على الرغم من كبر سنه, كما حاول في هذه المرحلة أن يتوسط بين الوزير المصري طلائع بن رزيك, ونور الدين محمود, حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر على جهاد العدو المشترك, ولكن محاولاته باءت بالفشل. [2]

المرحلة السادسة؛ وتمتد من اعتكافه في حصن"كيفا" سنه (559هـ), حتى عودته إلى دمشق, بدعوة من صلاح الدين الأيوبي سنة (570هـ), ومدتها (11) سنة. [3]

وقد قضى هذه المرحلة بعيداً عن تكاليف السلطان وخدمة الملوك, وربما اختار هذا المكان لما فيه من مكتبة ضخمة غنية, وهناك عكف على البحث والدروس والتأليف. [4]

المرحلة السابعة؛ وتمتد من عودته الأخيرة إلى دمشق سنة (570هـ), حتى وفاته فيها سنة (584هـ), ومدتها (14) سنة. [5]

وعاش في هذه المرحلة إلى جوار صلاح الدين الأيوبي, الذي أحسن معاملته, وكان يستشيره في ما يلم به, وإذا مضى إلى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه. [6]

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، توفي سنة (569 هـ). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، 1996،ج 20، ص 531-538.

(2) انظر: بدوي, أحمد أحمد , وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة, ص5.

(3) انظر : سكر, راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, ص162.

(4) انظر: بدوي, أحمد أحمد , وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة, ص5.

(5) انظر : سكر, راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, ص162.

(6) انظر: بدوي, أحمد أحمد , وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة, ص5-6.

لا حظنا من خلال قراءة المراحل الزمنية السبع التي مر بها أسامة بن منقذ أن حياة أسامة العسكرية والسياسية, كانت حياة مفعمة بالأحداث, مليئة بالحروب, وكان دوره في ذلك بين المحارب, الجندي أو القائد, وبين المشارك بالأحداث بالرأي والفكرة والمشورة.

3- مضمون الكتاب:

يعد "كتاب الاعتبار" شاهداً مهماً على فترة من أشد الفترات التاريخية في حياة الأمة العربية الإسلامية، أعني فترة الحروب الصليبية، فقد ولد أسامة بن منقذ في بداية الحملة الأولى للحروب الصليبية (488هـ/ 1095م)، حيث وقف البابا أوربانوس الثاني، بابا الفاتيكان في جمع حاشد يدعو أمراء أوروبا إلى شن حرب مقدسة من أجل المسيح، وتخليص الأرض المقدسة من سيطرة المسلمين[1].

يقع الكتاب في أقسام ثلاثة، **القسم الأول:** وهو بأخبار الوقعات والمصافات، (المواقف في الحروب)، والمعارك والحروب، ومنها: ما كانت بين آل منقذ وبين الإسماعيلية في قلعة شيزر سنة سبع وخمسمائة (507هـ)، ووقعة كانت بين عسكر حماة وعسكر حمص سنة خمس وعشرين وخمسمائة (525هـ)، ومصاف على تكريت بين أتابك زنكي بن آق سنقر[2]، وبين قراجا الساقي صاحب فارس[3] سنة ست وعشرين وخمسمائة (526هـ)[4].

---

(1) انظر:عبيد,إسحاق تاوضروس:روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني قنسطنطين (869-1204م),دار المعارف ,القاهرة,1970,ص25 ,39.

([2]) عماد الدين زنكي بن أق سنقر بن عبدالله, أبو المظفر الأتابكي, قائد عسكري وحاكم مسلم حارب الصليبيين, توفي سنه(541هـ). انظر: ابن الاثير:الكامل في التاريخ,ج8,ص368.

([3]) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة , نوفي سنة 517 هـ, من سهم مسموم اصابه في حصار أفامية. انظر: ابن الاثير: الكامل في التاريخ, ج10 , ص 618.

(4) انظر: السامرائي، قاسم: مقدمة كتاب الاعتبار، ص 8، 9.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتحدث أسامة بن منقذ عن هذه المصافات والوقعات، فيقول: "حضرت من المصافات والوقعات مهول أخطارها، واصطليت من سعير نارها، وباشرت الحرب وأنا ابن خمس عشرة سنة إلى أن بلغت مدى التسعين، وصرت من الخوالف خدين المنزل، وعن الحروب بمعزل، لا أُعِد لمهم، ولا أدعى لدفاع ملم، بعد ما كنتُ أول من تُثنى عليه الخناصر، وأكبر العدد لدفع الكبائر، أول من يتقدم السنجقية عند حملة الأصحاب، وآخر جاذب عند الجولة لحماية الأعقاب"[1].

وقد سرد عجائب ما شاهده في هذه الوقعات، ووصف فيها شجاعته وإقدامه رحمه الله[2]. وهذا القسم أغنى أقسام الكتاب, وأهمها من حيث دراسة الآخر/الغرب الصليبي، واستكناه نفسيته، وسبر رؤيته ووجهة نظره تجاه الشرق(المجتمع العربي المسلم)، ويعد تصويراً مبنياً على الحيادية، والبعد عن حب الذات، وتمجيد الأناء والمبالغة فيها، كما أنه قائم على المشاهدة والخبرة الشخصية، لا على الرواية والزعم، فحياة الأمير أسامة بن منقذ مفعمة بهذه المشاهد، وتلك الصور التي كان فيها مشاركاً فاعلاً، وفارساً مغواراً، يقارع الأبطال، ويجندل الفرسان.

وقد رسم صورة الإفرنج في الحروب، كاشتباك الجيش الإفرنجي مع الجيش[3] المصري ومكرهم، أي الإفرنج، واحترازهم في معركة بيت جبريل، ومن المشاهد التي ذكرها في كتابه مبيناً شدة بأس أحد جنود الإفرنج، وقد طعن عربياً يقال له: سابة بن قنيب الكلابي، حيث قطع له ثلاث أضلاع من جانبه الأيسر، وثلاث أضلاع من جانبه الأيمن فمات لتوه[4].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص16.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص17.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص47.
(4) انظر: المصدر نفسه, ص40، 67، 71.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما أتى على ذكاء الإفرنج وغفلة بعض المسلمين، حيث عسكر الإفرنج في حماة، وكانت بيوتهم من الخيام، فقرر رجل من المسلمين أن يشعل النار في خيامهم، فأشعل النار في الزرع ظناً منه أن يشتعل الزرع بعضه ببعض، ويصل إلى خيامهم دون أن يروه، فتنبه الإفرنج إلى النار، فأطفؤوا النار، وقتلوا الفارس[1].

وفي هذا القسم –أيضاً– يصور بعض عادات وطبائع الإفرنج، كقطع الطرقات، والسرقة، والكذب في المعاملات والبيع، والسحر، فليس فيهم على حد قوله طبع رائع إلا الشجاعة والقتال، وتتكرر عباراته بوصفهم بالشياطين، ويدعو عليهم باللعنة، ويصفهم بقطّاع الطرق والسارقين[2].

والقسم الثاني: يتعلق بأخبار الصيد والقنص والجوارح،إذ قص فيه أسامة بن منقذ حكايات ومشاهد الصيد التي حضرها مع والده وعمه وغيرهما من الأمراء والقادة في غير موقع أثناء إقامته في قلعة شيزر أو ما وقع له من هذه المشاهد في سورية، ومصر، والعراق، يقول أسامة بن منقذ في ذلك: " وأنا ذاكرٌ فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح: فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر. ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر –رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ,رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بمصر. ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك زنكي ,رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داوود بن أرتق ,رحمه الله, [3].

وعندما لم يكن أسامة بن منقذ منهمكاً بقتال الأعداء، يشتغل بقتال الحيوانات المفترسة التي كانت سوريا الشمالية يومئذ تعج بها، أو يصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحمر الوحش بالبازي

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص108.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص103، 114، 152، 153، 154، 155، 158، 181.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص200.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبالباشق وبالكلاب في شيزر ودمشق، وفي الموصل والقاهرة، وقد ضمن زبدة خبراته وتجاربه في هذا القسم النفيس[1].

ولعل ثمة علاقة بين صيد الوحوش والجوارح الضارية، وبين قتال الأعداء من الإفرنجية، وهي أن أحدهما يفضي إلى الآخر، من حيث اكتساب الخبرة والتجربة في فن القتال والمواجهة والاحتراز من الخصم سواء أكان بشراً أم حيواناً، وليس الأمر مقتصراً على الترويح عن النفس، واللهو الممتع المفيد، وإن كان في الصيد جانب كبير من ذلك، فضلا عما أتاح له هذا الجانب من التعرف على طبائع الحيوانات: كالأسود، والنمور، والطيور.

يقول عن طبائع الأسود: "الأُسد كالناس فيها الشجاع، وفيها الجبان"[2]، وأن " الأسد إذا خرج من موضع لابد له من الرجوع إليه"[3]، ويقول عن النمر إنه: " دون سائر الحيوان يقفز إلى فوق أربعين ذراعاً"[4]، وله في هذا الجانب من الملحوظات الدقيقة[5]؛ وهي أن الحبارى إذا اقترب منها الصقر "استقبلته بذنبها، فإذا دنا منها سحلت [بالت] عليه بلّت ريشه، وملأت عينيه، وطارت"[6] إلا أنه شارك أبناء جيله في بعض الخرافات التي تتعلق بالحيوانات والطيور، ومن ذلك قوله في

---

(1) انظر:حتي، فيليب: مقدمة كتاب الاعتبار، ص15.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص127.
(3) المصدر نفسه, ص128.
(4) المصدر نفسه, ص131.
(5) انظر:حتي، فيليب: مقدمة كتاب الاعتبار، ص16.
(6) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص132.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بعض خواص النمر[1] "أنه إذا جُرح الإنسان، وبالت عليه فأرة مات، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر"[2].

كما يذكر طريقته في صيد الطيور، أما صيد الطيور، فيكون بالبزاة والشواهين، حيث تُدق الطبول، فتضطرب طيور الماء، فتأخذ منها البزاة ما تأخذ، فما هرب منها، أرسلوا عليه الشواهين لتأتي به[3].

وذكر –كذلك– أدوات الصيد من حيوانات, وطيور، وآلات؛ كالكلاب، والباز والصقور، والشباك، والكلاكيب ...[4]، وآتى على بعض ما كان يصطاده من حيوانات وطيور؛ كالحجل، والدرّاج، والضباع، والأسود، والنمور وغير ذلك[5].

ولا غرو في ذكر هذه المشاهدات، وتلك الأخبار التي تتعلق بأحوال الصيد وطبائع الحيوانات، وما أتى على ذكره في باب الطرد، وطرق الصيد وأدواته، فأسامة بن منقذ قضى شطراً طويلاً من عمره، وهو يمارس هذه الهواية التي رضع لبانها منذ نعومة أظفاره بدءاً بأول مشواره مع أبيه، وانتهاء بمن رافقهم من الملوك والأمراء والقادة في سورية ومصر وفلسطين.

أما **القسم الثالث:** فهو ملحق الكتاب، وقد ذكر فيه طرفاً من أخبار الصالحين، يقول عنه أسامة بن منقذ: "هذه طرف أخبار حضرت بعضها، وحدثني ببعضها من أثق به، جعلتها إلحاقاً في

---

(1) حتي، فيليب: مقدمة كتاب الاعتبار، ص16.
(2) انظر:ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص132.
(3) انظر:المصدر نفسه، ص 212.
(4) انظر: المصدر نفسه, ص213، 214.
(5) انظر:المصدر نفسه, ص219، 220.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكتاب، إذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم. وبدأت فيها بأخبار الصالحين، رضي الله عنهم, أجمعين"[1].

وتتبدى في هذا القسم الاعتقاد بالكرامات ومناقب العلماء والزهاد، حيث سرد جانباً من أخبارهم في كتابه، سواء أكان ذلك مما شاهده من أحوالهم، أم ما أخبره بها ممن يثق برواياتهم، و"تقوم في جملتها على إيراد الأفعال الخارقة للمألوف بأسلوب حكائي بسيط يستميل المتلقي لما فيه من إثارة وتشويق,وتقوم بنية الكرامة في الكتاب على ثلاثة عناصر رئيسية هي: راوٍ، ثم العقدة، ثم المدد الإلهي الذي يمثل الحل"[2].

وقد تنوعت كرامة هؤلاء الصالحين، وتنوعت القدرات الخارقة التي تمتعوا بها، منها: البصيرة وقوة الحدس، كما في قصة البصري، أبي عبد الله محمد البصري[3]، والقدرة على علاج وعلاج بعض الأمراض، دون استخدام وسائل الطب المعروفة، كما في قصة "علي يداوي قيم مسجده"، و"علي يداوي مفلوجا"[4]، والقدرة على جلب بعض الأشخاص وإحضارهم ، دون استخدام وسيلة من وسائل النقل، كما في قصة "عبدالله بن القبيس"[5]، والزهد والتقرب إلى الله وتعويد النفس على تحمل المشاق والصبر على القليل، كما في قصة "شهوة شيخ مائت تتحقق"[6]، وأخلاق هؤلاء

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص184.

(2) السقرات، براءة محمود، "كتاب الاعتبار"، أسامة بن منقذ دراسة تحليلية رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، مؤتة, الكرك، 2011، ص53.

(3) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص184، 185.

(4) انظر: المصدر نفسه, ص187، 188، 191.

(5) انظر: المصدر نفسه, ص187.

(6) انظر: المصدر نفسه, ص186, 178.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصالحين في المحافظة على الأمانة، ومقابلة الإحسان بمثله، كما في قصة الشيخ الحافظ أبي الخطاب عمر بن محمد[1].

وقد وقف الدارسون من هذا القسم موقفين مختلفين – ولاسيما وأنه وقع بين أخبار القسم الأول، والقسم الثاني– فالأشتر يرى أن هذا الملحق لا علاقة له بالكتاب، ولا صلة له بموضوعه، وهو صفحات قليلة ألحقت بالكتاب إلحاقاً، لا تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوع الذي يدور عليه الكتاب في جملته[2] في حين يرى سعود عبد الجابر أن ذلك التفكك الذي يبدو في السيرة، هو للوهلة الأولى، فثمة روابط وثيقة تربط بين أجزائها، إذ إنها جميعاً تدور حول شخصية الكاتب، بالإضافة إلى احتوائها على العظة والعبرة التي توحد السيرة[3].

وليس صحيحاً أيضاً أن الاضطراب الذي وقع في هذه السيرة، ناجم عن أن أسامة بن منقذ قد دون هذه المذكرات بعد أن بلغ التسعين، وذاكرة المرء في هذه الفترة تخونه كثيراً. فأسامة بن منقذ لم يدون هذه المذكرات من الذاكرة، بل ربما كان لديه كثير من القصاصات اليومية التي كان يحتفظ بها، كان يدون فيها ما صادفه من المشاهد وما شارك فيه من الوقعات، ثم قام بجمعها وترتيبها وتنسيقها.

ولكن اللافت للنظر أن القسم الثاني الذي تحدث فيه عن كرامات الأولياء والصالحين, وهو ملحق بالكتاب كما قال أسامة بن منقذ قد توسط القسمين الأول والثالث،يقول:" هذه طرف أخبار

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص192، 193.

(2) انظر:الأشتر، عبد الكريم: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري (488– 584هـ) (مذكرات أسامة بن منقذ، الحروب الصليبية مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط2، 2003، ص22.

(3) انظر:عبد الجابر، سعود: صورة أسامة بن منقذ من خلال سيرته الذاتية في كتاب الاعتبار، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، جامعة العلوم التطبيقية،عمان, ع16، 2000، ص114.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حضرت بعضها, وحدثني ببعضها من أثق به, جعلتها إلحاقاً في الكتاب, إذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم. وبدأت منها بأخبار الصالحين, رضي الله عنهم, أجمعين".[1] مما أوحى بعدم الترابط والتماسك بين أجزاء السيرة، والذي أراه في ذلك أن أسامة بن منقذ لم يكن معنياً بترتيب الأحداث التي وقعت له، ولم يكن مهتماً بتسلسلها التاريخي، بقدر ما كان يعنى بالعظة والعبرة التي يمكن أن تستفاد من هذه الأحداث وتلك المشاهد، أو ربما يعد ذلك من فعل النساخ، وعدم وعيهم لأهمية ترتيب وتسلسل هذه الأقسام.

كما أن وجود نسخة واحدة فقط اعتمدها محققو هذا الكتاب يجعل إصدار الأحكام بدقة ليس بالأمر السهل واليسير، فهذا القسم–كما يبدو لي– مقحم بين القسمين الأول والثالث؛ ولذلك لا علاقة له بالكتاب أصلاً، ولا سيما وأنه يحتوي على روايات تفوق الخيال، قد لا يصدقها كثير من الناس، وقد تكون موضع شك عندهم، وهذا الأمر لا يفوت أسامة بن منقذ, وهو من العلم والتجربة والخبرة والعقل في المكانة العالية، وقد شهد له بذلك كل من عاصره وأرخ له، ولهذا يحتمل أن يكون من إضافة النساخ وعبثهم بأصول الكتب التراثية.

4- قيمة الكتاب:

تظهر أهمية هذا الكتاب في أنه يمثل قيمتين، لا تقل إحداهما عن الأخرى أهمية، الأولى: قيمة موضوعية، والثانية: قيمة فنية.

أما الأولى، فإنه يجسد وثيقة تاريخية قل نظيرها في فترة من أحرج الفترات وأشدها، وهي مرحلة الصراع الإسلامي الصليبي، صراع بين حضارتين بينهما شأو واسع من التحضر والتقدم واحترام آدمية الإنسان، حضارة إسلامية فيها من الرقة والسمو، تضرب بجذورها في تربة ثرية بالقيم

(1) ابن منقذ, أسامة:الاعتبار, تح, السامرائي,ص184.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والأصالة والعراقة، وحضارة مسيحية وئيدة الخطأ، تتعثر في فكرها ورؤيتها وتقديرها للآخر، تقودها الأطماع ويحدو بها الحقد والضغينة للسيطرة على مقدرات الأمم وخيرات الشعوب، روح استعمارية بشعة، تتقنع بأقنعة يسقط الواحد تلو الآخر، فينكشف الدافع الاستعماري الحقيقي عن اغتصاب المقدسات، وتدنيس قدسيتها.

وقد جاء هذا الجانب ثرياً بمادته العلمية, ففيها من الحديث عن الإفرنج الحديث الواسع والمطول، فقد رسم صورتهم في الحروب بكل صدق وتجرد، مظهراً بأسهم وشدتهم في القتال، ودهاءهم ومكرهم في النزال، يقول أسامة بن منقذ في وصف شجاعتهم: " والإفرنج خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان – فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم"[1]، ويقول في شجاعة أحد فرسانهم واسمه بدرهو " فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته: يحيى بن صافي الأعسر، وسهل بن أبي غانم الكردي، وحارثة النمري، وفارس آخر.[2] فحمل عليهم، فهزمهم، ولحق واحداً منهم طعنه طعنة فَشِلةً ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن، وعاد إلى الخيام...."[3].

كما تحدث عن طبائعهم وعاداتهم، ومن ذلك جفاء أخلاقهم، ولا سيما منهم الذين لم يعاشروا المسلمين، يقول: "فمن جفاء أخلاقهم –قبحهم الله– أنني كنت إذ زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فدخلته يوماً فكبرت، ووقفت في الصلاة، فهجم علي واحد من الإفرنج مسكني وردّ وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صلِّ"[4].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 87.

(2) لم أعثر على ترجمه لهم في ما توافر لدي من مصادر ومراجع, وقد وردوا في كتاب الاعتبار, ص90.

(3) المصدر نفسه, ص90.

(4) المصدر نفسه, ص154.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك انعدام النخوة والغيرة على نسائهم بحيث "يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"[1].

ويعيب عليهم جهلهم بالطب، ومداواة المرضى، يقول في ذلك: "..... كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض، وأشرف على الموت. فجئنا إلى قسّ كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطّ يده عليه عوفي ، فلما رآه قال: أعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فليّنه وعمله مثل عُقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات! قال: نعم! كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح"[2].

ولعل هذه الرواية، وإن دلت على جهل الإفرنج بالطب، وقلة بضاعتهم في هذا الجانب، ولا غرو في ذلك فهم حديثو عهد بالتقدم والتحضر، إلا أن فيها ما يشي بالوضع، وذلك في قوله: "ومشى معنا، ونحن نتحقق أنه إذا حطّ يده عليه عوفي" فهذه العبارة توحي بأن أسامة بن منقذ على قدر كبير من السذاجة والبساطة، وهو من العلم والمعرفة والعقل على قدر كبير، وفي المنزلة العالية منها، فكيف يجتمع الأمران، وهما على طرفي نقيض؟! وهذا يدعو إلى مراجعة بعض النصوص التي تغض من شأن الأمير الفارس والقائد، والأديب الشاعر. ويشير كذلك إلى بعض حيلهم في النهب والسرقة وقطع الطرق[3].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص154.
(2) المصدر نفسه, ص 156، 157.
(3) انظر: المصدر نفسه, ص170.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعل إنعام النظر في الصورة التي رسمها أسامة بن منقذ للإفرنج، وقد شغلت حيزاً واسعاً في كتابه، يتبين أنها صورة حيادية وموضوعية وواقعية, ناجمة عن خبرة ودراية ومشاهده لهؤلاء القوم، فقد خبرهم في القتال والحرب، كما خبرهم في المعاملات والمعايشة، حيث كان له معهم صداقات، وكان له فيهم معارف وأصدقاء؛ خاصة الداوية[1]، يطريهم في غير موضع من الكتاب، يقول عنهم: "وهم أصدقائي"[2]، كما رأينا –سابقاً– كيف مدحهم، وأنزلهم منزلتهم في الشجاعة والفروسية والإقدام.

فهو لا يقف منهم موقف المعادي في هذه الجوانب رغم أنهم معتدون، فلم يدفعه حب الذات والأنا أن يغض من شأن العدو، ويقلل من مكانتهم في الإيجابيات والفضائل, وإن بدر منه بعض العبارات والألفاظ؛ كاللعن والتقبيح....، ولعل له العذر في ذلك فما رآه منهم من فساد وفوضى وظلم، ونهب وسلب، وتدنيس للمقدسات ما جعله يشفي بعض غليله بهذه العبارات.

كما أنه ألقى بعض الضوء على أحوال البلدان الشامية وحظها من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والسياسية, فمن المظاهر الاجتماعية التي يلقاها المتلقي في الاعتبار: اللصوصية وقطع الطرق، واضطرار فئات كثيرة من الناس للنهب والسلب بسبب الحروب وكثرة المتعطلين عن العمل، يقول على سبيل المثال: "خرجت رجّالة حراميّة على قافلة أخذوها...."[3] وقد أهتم أسامة بن منقذ بأخبار النساء وأحوالهن في عصره، وأشار إلى بعض أدوارهن في البيئة الشامية،

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص153.

(2) المصدر نفسه, ص 153.

(3) المصدر نفسه, ص173، وانظر: المصدر نفسه، ص102، 157.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فتجد عنده نماذج نسويه متنوعة، مثل: النذّابة، والساحرة، والعابدة، والطباخة، والمربية، والجارية[1] غير أنه كان أكثر إعجاباً بالمرأة المقاتلة الشجاعة[2].

ونقل أسامة بن منقذ جانباً من حياة عليه القوم في لهوهم وترفهم، وكيف كانوا يقضون أوقات فراغهم، وماذا كان يدور في مجالسهم، وطقوسهم في الاحتفالات[3].

ومن الناحية الاقتصادية، فثمة حديث عن القوافل التجارية، وأشهر المحاصيل والأشجار التي كانت تشتهر بها بلاد الشام، والحيوانات الأليفة التي كان الناس يعتنون بتربيتها آنذاك[4].

وفي الناحية التربوية، يستشف من "كتاب الاعتبار" الوسائل التعليمية والتربوية التي كان ينتهجها الناس في تنشئة أبنائهم وتعليمهم منذ نعومة أظافرهم، حيث كانون يُحفِّظونهم القرآن الكريم, ومبادئ الكتابة والقراءة والحساب في الكتاتيب ودور العلم، وبعضهم كان يستدعي العلماء لأبنائهم ليتفقهوا في علوم القرآن والحديث، بالإضافة إلى تعليم ركوب الخيل، وممارسة هواية الصيد[5].

أما من الناحية السياسية، فقد أشار الباحث إلى طبيعة الصراع بين المسلمين والإفرنجية والواقعات والمعارك التي خاضها المسلمون معهم، كذلك المصافات التي شارك فيها أسامة بن منقذ، علاوة على ما قدمه من صورة الإفرنج في الفروسية والطباع والعادات كما تبدت في "كتاب الاعتبار".

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص94، 135، 143، 146، 147، 160، 199.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص144، 145.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص70، 101، 102، 106، 195.
(4) انظر: المصدر نفسه، ص33، 34، 35، 42، 43، 48، 49، 200-232.
(5) انظر: المصدر نفسه، ص55، 56، 64، 65، 66، 67، 160، 165، 173، 182، 186، 187، 200، 216.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأما الثانية (القيمة الفنية)، فإنه يعد من أهم كتب السيرة الذاتية، وأنضجها وأدقها في الأدب العربي" ففيه يتحدث أسامة بن منقذ عن حياة حافلة بالتجارب والمشاهدات، في أسلوب بسيط، ينقل الحوار باللغة الدارجة في ذلك العصر"[1].

كما يمثل أكمل سيرة ذاتية، حاول فيها أن يغطي جوانب حياته كلها، منذ نعومة أظفاره إلى آخر أيامه، فقد كتبها وهو في عمر يناهز التسعين عاماً[2]، حيث سعى إلى التركيز على حساسية الواقع الزمني والمكاني الذي حصلت فيه تجربته بكل أبعادها ومفاصلها وآمالها، نقلها بكل تكثيف من فضائها الواقعي إلى فضاء قصصي، كان الجانب التخيلي مقتصراً على خدمة الوقائع والأحداث؛ لأنه مقيد بخصوصية التجربة وواقعيتها، إنها بحق " مذكرات نفيسة، ويزيد في نفاستها أن ما دوّن بها مما خبره وشاهده بعينه"[3].

وتبرز هذه السيرة المنعرجات الكبرى التي شكلت حياته الفكرية والثقافية والتربوية والروحية، بحيث تتعالق وترتبط أشد الارتباط في بؤرة التجربة الواقعية التي عاشها، وصاغها صياغة أدبية تمتاز ببساطة اللغة وسهولتها، وتعتمد على استحضار الصور، واسترجاع الأحداث الماضية، وتتوخى العبرة، واحتذاء النموذج، وتتحرّى الصدق، وتبوح بالمشاعر والوجدانات، وتمتح من الواقع بكل إيجابياته وسلبياته.

---

(1) عباس، إحسان: فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1981، ص138.

(2) انظر :العمد، هاني: دراسات في كتب التراجم والسير، منشورات المؤسسة الصحفية الأردنية، 1981، ص30.

(3) ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1956، ص94.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب- السيرة الذاتية في النثر العربي القديم:

1- مفهوم السيرة الذاتية ونشأتها في النثر العربي القديم

تعد السيرة الذاتية شكلاً من أشكال الكتابة الفنية التي توثق حياة كاتبها، أو لأهم المحطات الفكرية، أو الثقافية، أو السياسية... التي شكلت شخصيته، أو صقلت تجاربه في جانب من هذه الجوانب. ولم تقتصر كتابة السيرة الذاتية على النثر، فقد كتب بعض الشعراء بعضا من منعطفات حياتهم شعراً[1]. ولعل تحديد مفهوم السيرة من الناحية اللغوية يضيء مفهوما اصطلاحاً.

أ- السيرة الذاتية لغة: السيرة لغة مصدر سار يسير سيراً، والسيرة السُّنَّة، والطريقة، يقال: سار بهم سيرة حسنة، وسيَّر سيرة: حدَّث أحاديث الأوائل، وسار الكلام والمثل في الناس: شاع. ويقال هذا مثل سائر، وهذا في سير الأولين، والسيرة: الهيئة، وبه فُسر قوله تعالى: (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا **الأُولَى**)[2]، والجمع سِير[3].

---

(1) انظر على سبيل المثال: درويش، محمود: ديوانه (لماذا تركت الحصان وحيداً)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1995. قباني، نزار: ديوانه (أبجدية الياسمين)، منشورات نزار قباني، بيروت، 2008. السياب، بدر شاكر: قصائده: (جيكور، الوصية، غريب على الخليج...)، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ط4، 2008، ص 130-134-137، 181-184.

(2) سورة طه: آية 21.

(3) انظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ): جمهرة اللغة، علق عليه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر (ت 538هـ): أساس البلاغة، تح: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة للطباع والنشر، بيروت، 1982، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مُكرّم (ت 711هـ):لسان العرب, دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(ت 1205): تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مراجعة عبدالستار أحمد فراج، مطبعة الكويت، الكويت، 1973. مادة (سير).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول ابن فارس: "السين والياء والراء أصل يدل على مضيٍّ وجريان، يقال: سار يسير سيراً، وذلك يكون ليلاً ونهاراً والسِّيرة: الطريقة في الشيء والسُّنّة؛ لأنها تسير وتجري"[1]. وسيرة الرجل: صحيفة أعماله، وكيفية سلوكه بين الناس، يقال: "هو حسن السيرة"[2].

ويتضح مما سبق أن المعنى اللغوي لهذه المفردة يتمحور حول: السنة والطريقة، والهيئة، وصحيفة أُعمال المرء وسلوكه، والشيوع والسيران، والحديث الذي يجري على ألسنة الناس، في ما يتعلق بالذات أو بالغير.

ويبدو أن المعنى اللغوي للفظة (السيرة) يتقاطع مع المفهوم الاصطلاحي العام للسيرة، من حيث إنها تتناول صحيفة أعمال الإنسان، وسلوكه بين الناس، كما أنها تحمل دلالة الشيوع والسيران على ألسن الناس، وسرد حديث الأوائل، سواء أكان ذلك شفوياً أم كتابياً.

وإذا كانت المعاجم القديمة – كما تبين سابقاً – قد أهملت التطور الدلالي للفظة السيرة. والاقتراب من المفهوم الاصطلاحي لها – على الرغم من ظهور السيرة الذاتية فناً أدبياً منذ القرن الخامس الهجري[3].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ): مقاييس اللغة، تح: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مادة (سِيرَ).

(2) انظر: معلوف، لويس: المنجد في اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، (د.ت)، مادة (سير) .

(3) انظر: عباس، إحسان: فن السيرة، ص120 وما بعدها، حسن، محمد عبدالغني: التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د.ت)، ص 24، 25.

إن المعاجم الحديثة قد تنبهت للعلاقة بين السيرة من الناحية اللغوية والاصطلاحاً[1]، ولا غرو في ذلك فان تطور الألفاظ المعجمية من النواحي الدلالية ضرورة حتمية تبعاً لتطور العلوم والمعارف، وتلاقح الثقافات، والاتصال الحضاري والثقافي بين الأمم والشعوب.

ب- مفهوم السيرة الذاتية اصطلاحاً: تعددت تعريفات السيرة الذاتية من الناحية الاصطلاحية، فقد قدم كل مهتم بهذا الفن تعريفاً خاصاً به وفقاً لطبيعة فهمه لهذا الجنس الأدبي، ولعل السبب يعود في ذلك إلى مرونة هذا الفن الأدبي، وطبيعة تداخله مع الأجناس الأدبية النثرية الأخرى. وسيعرض الباحث لبعض من هذه التعريفات.

يعرف عبدالعزيز شرف فن السيرة الذاتية، فيقول: "السيرة الذاتية تعني حرفياً ترجمة حياة الإنسان كما يراها هو"[2]، ويعرفها يحيى عبدالدايم بأنها: "التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة. على أساس الوحدة والاتساق في البناء والروح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً، عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات الخصبة.

وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حوار، مستعيناً بعناصر ضئيلة من الخيال لربط

---

(1) انظر: أنيس، إبراهيم: وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، (د.م)، (د.ط)، (د.ت)، البستاني، بطرس بن بولس (ت 1883م): محيط المحيط: قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، معلوف، لويس: المنجد في اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، (د.ت)، مادة (سير) .وقد أشارت هذه المعاجم إلى أن السيرة تعني: السنة والطريقة، والهيئة، وصحيفة أعمال المرء وسلوكه. انظر: عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، عالم الكتب،القاهرة,2008. مادة (سير)، وقد جاء فيه: السيرة الذاتية، عمل أدبي يقوم فيه مؤلفه بسرد قصة حياته، ويتضمن – بالضرورة – وصفاً مباشراً ودقيقاً لبعض الحوادث التاريخية، وملامح الحياة في الفترة التي عاش فيها صاحب السيرة.

(2) شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1992، ص 27.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أجزاء عمله، حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألاَّ يسترسل مع التخيل والتصور، حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية، وخاصة إذا كان يكتب ترجمته في قالب روائي"[1].

ويقول عنها إحسان عباس بأنها: "تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني، فإنه لا بد أن يكتبها"[2]، وجاء في الموسوعة العربية العالمية، هي: "قصة حياة شخص يكتبها بنفسه عن نفسه؛ مثل: سيرة أسامة بن منقذ، وسيرة ابن خلدون (ت 808هـ) "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، "وطوق الحمامة في الألفة والآلاف" لابن حزم (ت 456هـ)، و "المنقذ من الضلال" للغزالي (ت505 هـ)...وقد دخل فن السيرة بنوعيه في العصر الحديث نطاق الأدب, ولم يعد, أخباراً محكية، ولا أحداثاً تاريخية، ولكنه قام على عنصر الحقيقة والواقع، في بناء فني متماسك، وبلغة أدبية، تجعل السيرة فناً أدبياً لا عملاً تاريخياً، وإن داخلها شيء من الخيال وصنعة الفن"[3].

وفي الموسوعة البريطانية؛ هي: "فن أدبي يحكي فيه الكاتب عن حياته، أو جزء منها، وقد يعترف بالأخطاء التي ارتكبها في مرحلة ما من حياته. وغالباً ما يقدم الكاتب ميثاقاً للترجمة الذاتية يعد فيه القارئ بأن يقول الحقيقة عما عاشه هو بالذات وتكتب الترجمة الذاتية بضمير المتكلم، إلا إنه سبق لبعض الكتاب أن كتب سيرته بضمير الغائب مثل طه حسين في كتابه الأيام"[4].

---

(1) عبد الدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1974، ص 10.

(2) عباس، إحسان: فن السيرة، ص 102.

(3) الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1999، ج 13، ص381–382.

(4) الموسوعة البريطانية (باللغة العربية): شركة الموسوعة البريطانية المحددة، المملكة المتحدة، 1768 https://ar.m.wikipedia.org/wiki/ترجمة_ذاتية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويعرفها محمد عبدالغني حسن بـ"أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالباً، وشرك للحديث عن النفس، والزهو بها، وإعلاء قيمتها، ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب الرجل وأكثر انطباقاً على حياته؛ لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض، ولكنها مجال تحقيق وتثبت.

وبهذا يصح في المترجم الذاتي مضرب المثل: (قطعت جهيزة قول كل خطيب)"[1] ويعرفها عبدالمحسن بدر بأنها "تحاول تفسير تاريخ حياة مؤلفها في مرحلة زمنية محدودة، وتحتفظ بالترتيب الزمني للأحداث كما وقعت لصاحبها، ولا يقتصر المؤلف على سرد الأحداث، ولكنه يقف فيها موقف الدارس المحلل، كما أن الرابطة التي تربط بين أحداثها مجرد رابطة سطحية، تتمثل في وقوع الأحداث بعينها في زمن محدد، وذلك بعكس الرواية التي لا تكتفي فيها الرابطة الخارجية وحدها، ولكنها تفترض وجود رابطة داخلية بين الأحداث، وتتمثل في إحساس المؤلف الذي تتطور أحداث الرواية لإبرازه"[2].

ويرى المسدي أنها اهتمام الفرد بحياته الشخصية، وما تحمله من تضافر الظاهر والباطن من جهة، والموضوعي والذاتي من جهة أخرى[3]، وهي من وجهة نظر عبدالكريم الخطيبي "طريقة لتوثيق الصلة بالحاضر، ووسيلة دائمة لوضع العالم والإنسان موضع التساؤل"[4].

---

(1) حسن، محمد عبدالغني: التراجم والسير، ص 5.

(2) بدر، عبدالمحسن طه: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870-1938)، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 299.

(3) انظر: المسدي، عبدالسلام: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، 1983، ص 114.

(4) الخطيبي، عبدالكريم: في الكتابة والتجربة، تر: محمد برادة، دار العودة، بيروت، 1980، ص 108.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما فيليب لوجون (philippe leujeune)، فقد سعى إلى وضع تعريف أكثر شمولاً من التعريفات السابقة، فقال إنها: " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته"[1].

ويعرض هذا الحد عناصر تنتمي إلى أربعة أصناف مختلفة، والتعليق – هنا – لعمر حلي

1- شكل اللغة.

أ- حكي.

ب- نثري.

2- الموضوع المطروق: حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة.

3- وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

4- وضعية السارد:

أ- تطابق السارد والشخصية الرئيسة.

ب- منظور استعادي للحكي.

ستكون السيرة الذاتية هي: كل عمل, يجمع في الوقت نفسه الشروط المشار إليها في كل صنف من هذه الأصناف. ولا تجمع الأنواع المشابهة للسيرة الذاتية كل تلك الشروط. وهذه لائحة للشروط غير المحققة حسب الأنواع:

1- المذكرات.

2- السيرة.

---

(1) لوجون، فيليب: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 8.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

3- الرواية الشخصية.

4- قصيدة السيرة الذاتية.

5- اليوميات (الخاصة).

6- الرسم الذاتي أو المقالة.

ومن البديهي أن تختلف الأصناف المتفاوتة من حيث إجباريتها: إذ يمكن أن يتحقق الجزء الأكبر من بعض الشروط دون أن يتم ذلك كلياً. يجب أن يكون النص حكياً قبل كل شيء، كما يجب أن يكون الموضوع أساساً هو الحياة الفردية، وتكوّن الشخصية، غير أنه يمكن أن يشمل إلى جانب ذلك على التعاقب والتاريخ الاجتماعي أو السياسي. [1]

ولعل المتأمل لهذه التعريفات السابقة الذكر – وهي غيض من فيض – يلحظ أنها:

أولاً: ليس ثمة من بينها تعريف جامع مانع، بل هي وجهات نظر، تمثل رأي صاحبها، ووجهة نظره، ومدى خبرته وتجربته، واطلاعه على هذا الفن الأدبي الذي يمتاز بالمرونة، والتداخل بين الأجناس الأدبية الأخرى: كالرواية,والمذكرات الشخصية، والمقالة وغيرها.

ثانياً: هناك كثير من النقاط التي تتقاطع عندها هذه التعريفات، على الرغم من كثرتها، وتباينها للوهلة الأولى، وهي:

1- إنها ترجمة لحياة إنسان يكتبها بنفسه.

2- ينبغي أن تكون هذه الحياة: حافلة بالتجارب، خصبة بالخبرات، لها مشاركة فاعلة في جوانب الحياة المختلفة، وربما تكون صانعة لأحداث هذه الحياة.

---

(1) انظر :لوجون فيليب: السيرة الذاتية، ص 22–23.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

3- تعد تجربة فردية خالصة على درجة عالية من النضج، وليست مجرد أحداث وأخبار تتخذ شكل السرد الحكائي.

4- تمتاز بالصراحة والجرأة والمكاشفة والوضوح.

5- قد تشمل حياة الإنسان منذ طفولته، حتى آخر مرحلة من حياته يقف عندها، أو قد تعالج أهم هذه المراحل وأبرزها، بحيث يرى أنها جديرة بأن يُطلع المتلقي عليها.

6- إنها حكي استعادي نثري.

7- ينبغي أن تمتاز بالترابط والتسلسل، وجمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة.

ولعل من العسير جداً أن يُرجح تعريف على حساب تعريف آخر، كما لا يمكن أن يعد تعريف أكثر شمولاً وإحاطة بمفهوم السيرة، على الرغم من أن تعريف لوجون أكثرها دقة، وأكثرها أثراً في جل الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع، بل أصبح حداً قلما تخلو منه دراسة تتناول هذا الموضوع[1].

إذن، أستطيع القول: إن السيرة فن أدبي نثري استرجاعي يكتبه شخص– ذو أهمية– بنفسه عن نفسه، يقدم فيها حياته، أو جزءاً منها للمتلقي، بمنتهى الصراحة والوضوح، وبعيداً عن المغالاة والتخيل، تمتاز بالترابط والتسلسل، وتنهض على العرض الجميل، والعبارة الرقيقة الدقيقة.

(1) انظر :لوجون فيليب: السيرة الذاتية، ص 8.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

2- السيرة الذاتية ونشأتها في النثر العربي القديم:

عرف الأدب العربي فن السيرة الذاتية منذ وقت مبكر، فهو جنس أدبي عريق في الحضارة العربية الإسلامية، وإن لم يتبلور تصوره الذهني بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدي خاص به، فقد صيغ على نماذج تكاد تصل به منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب[1].

وإذ كان الأدب العربي القديم لم يعرف السير الذاتية بمفهومها الاصطلاحي الحديث، ولا بمستواها الفني المعاصر، فالإنسان العربي القديم كان مشدوداً إلى مبادئ ثقافية عامة تتصل برؤيته لنفسه وللكون والإله[2]. " فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة، كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتَّنوّع وسعة المجال والافتنان في موضوعات التراجم، لا تقاس به هذه البداية غير المنتظمة الخُطى في الآداب الأوروبية.

ففي القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري كان "كتاب الاعتبار" للفارس العربي المسلم أسامة بن منقذ (488 – 584هـ) يعد نموذجاً عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية قبل أن يكتب (Pepys) الإنجليزي، و (Relz) الفرنسي مذكراتهما بقرون. وفي القرن نفسه كان الشاعر عمارة اليمني(ت 569هـ) يؤلف كتابه " النُّكت العصرية"، ويترجم فيه لنفسه، كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم في أخريات العصر الفاطمي"[3].

ولعل من أوائل من طرق باب السيرة الذاتية في أدبنا العربي، هو حنين بن إسحق(260هـ)، الذي يعد أكبر مترجم لكتب جالينوس الطبيب اليوناني المشهور، إذ كان يُعجب به إعجاباً شديداً،

---

(1) انظر:المهدي، عبدالسلام: النقد والحداثة، ص 115.

(2) انظر:المبخوت، شكري: سيرة الغائب، سيرة الآتي – السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين–دار الجنوب للنشر، تونس، 1992، ص99.

(3) حسن، محمد عبدالغني: التراجم والسير، ص 11.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فكان طبيعياً أن يقتدي به في الحديث عن نفسه، حيث كتب رسالة صور فيها ما أصابه من المحن والشدائد، واحتفظ ابن أبي أُصيبعة (ت 668هـ) في كتابه "طبقات الأطباء" بهذه الرسالة التي تعد أقدم نص في ترجمة المتفلسفة لأنفسهم[1].

على أن أقرب التراجم الذاتية إلى الترجمة الذاتية الأدبية بمعناها الحديث، هي تلك التي كتبها كل من "المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت 470هـ)، والأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري (483هـ) بغرناطة المسماة بكتاب "التبيان"، وابن الهيثم (ت 430هـ)، والرازي (ت 606هـ)،وأسامة ابن منقذ، وابن خلدون(ت 808هـ) في كتابه الموسوم بـ "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"،[2] " لأنه توافر فيها أكبر قدر من المتعة، إلى جانب تصوير كل منها، ما يستدل منه على السمات المميزة لشخصية صاحبها، وعلى مدى التطور الذي طرأ عليها، وما دار في نفسه من ألوان مختلفة من الصراع، مع مهارة في السرد الأدبي الذي يعتمد على كثير من عناصر الفن، وعلى الدقة والوضوح والسهولة والعذوبة، ويعتمد – أيضاً، على قدر من الترابط في أجزاء كل ترجمة ذاتية، مما يجعلها عملاً يقوم على وحدة البناء في أكثر أجزائه.

وكلها من العوامل التي تحقق المتعة الأدبية، وتثير التعاطف الوجداني بين كاتب الترجمة الذاتية وبين متلقيها، ويدعوه إلى المشاركة القوية في عديد من تجاربه وخواطره ومشاعره وانفعالاته"[3].

---

(1) انظر :ابن أبي اصيبعة,موفق الدين(ت668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء ,تح:نزار رضا,منشورات دار مكتبة الحياة,بيروت,(د.ط),(د.ت),ص261. ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، ص 12.

(2) عبدالدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية، ص 39، وانظر: عباس، إحسان: فن السيرة، ص 127 وما بعدها.

(3) عبدالدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية، ص 39.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومـن الكتابـات التـي تقتـرب – أيضـاً – مـن السـيرة الذاتيـة كتـاب ابـن حـزم الأندلسـي (ت 456هـ) الموسوم بـ "طوق الحمامة في الألفة والألاف" الذي يجري فيه مجرى الاعتراف، فيبوح ببعض ذكريات شبابه العاطفية، "ولذلك نرى ابن حزم الأندلسي فذاً في تلك النتف الإعترافية التي ضمنها كتابه"[1].

وكذلك الغزالي (ت 505هـ) في كتابه "المنقذ من الضلال"، حيث صور فيه خلاصة تجربته الروحية، ومعالم رحلته العقلية، وكيف وصل من خلالها إلى ألحِق جلى وعلا، وقد اختلف النقاد فيما جاء في الكتاب، فمنهم من عده سيرة ذاتية[2].

ومنهم من رأي أنه لا يمثل "سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق؛ لأنه لا يصور إلا جانباً من أزمة روحية، تعرض لها الغزالي، دون نظر إلى ما عداها، ولكنه رسم هذه الأزمة بدقة"[3].

ولعل معالم السيرة الذاتية في أدبنا العربي لم تتضح، ولم تتبلور بصورة جلية وواضحة على وجه الخصوص إلا في السيرة التي كتبها أسامة بن منقذ، المعنونة بـ"كتاب الاعتبار"، إذ إنها تمثل أكمل سيرة ذاتية، ففيها حاول تغطية كل حياته منذ طفولته إلى آخر أيام حياته، وقد كتبها آنذاك، وهو في عمر يناهز التسعين[4], فهي تمثل أقرب ملامح السير الذاتية إلى السيرة الذاتية الحديثة وسماتها الدقيقة.

---

(1) عباس، إحسان: فن السيرة، ص 121.

(2) انظر :المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1978، ص 557-558.

(3) عباس، إحسان: فن السيرة، ص 136.

(4) انظر :العمد، هاني: دراسات في كتب التراجم والسير، ص 30.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبعد سيرة ابن خلدون الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"، لم يحظ الأدب العربي بسيرة ذاتية على قدر كبير من الأهمية "فقد خبا ضوء الأدب، وقل إنتاج الأدباء بعامة، وكتَّاب الترجمة الذاتية على وجه الخصوص. ويندر أن نعثر على ترجمة ذاتية، يمكن أن يعتد بها في مجال الدراسات الأدبية، بعد كتاب التعريف لابن خلدون، الذي ذاعت شهرته منذ القرن التاسع الهجري، القرن الرابع عشر، أوائل الخامس عشر الميلاديين"[1].

فالكتابات الذاتية التي شاعت في عصر ابن خلدون حتى مطلع العصر الحديث، لا نجد بينها كتاباً في السيرة الذاتية ما يقدم شيئاً جديداً لفن السيرة الذاتية، بل لعلنا لا نجد بينها عملاً يقترب بقيمته الأدبية من سيرة ابن خلدون، أو بعض أصول السيرة السابقة لها[2].

ومن الترجمات الذاتية التي جاءت بعد ابن خلدون ما كتبه ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) في كتابه "رفع الإصر عن قضاء مصر"، حيث ترجم فيه لحياته، فذكر مكان وزمان ولادته، وجزءاً من سيرته العلمية، ورحلته في طلب العلم[3].

وما ترجم لنفسه – أيضا – محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت 902هـ) في كتابه "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع"، فجاءت ترجمة أكثر سعة إذا ما قورنت بترجمة العسقلاني، حيث بلغت (32) اثنين وثلاثين صفحة ذكر فيها قسطاً وافراً من حياته العلمية وشيوخه وتلاميذه ورحلته

---

(1) عبدالدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية، ص 43.

(2) انظر :شاكر، تهاني عبدالفتاح: السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ص 64 .

(3) انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ): رفع الإصر عن قضاء مصر، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص 62 –64.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العلميـة وسـماعاته مـن الكتـب والمتـون[1] وكـذلك فعـل السـيوطي (ت 911هـ) فـي كتابـه "حسـن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة".

وقد ترجم لنفسه كما يقول اقتداء بالمحدّثين ممن قبله، فذكر نسبه، ومسيرته العلمية، وما سمعه من شيوخ عصره، والسنة التي شرع فيها في التصنيف، ورحلته في طلب العلم[2].

وفي مطلع العصر العثماني، يترجم الشعراني (ت 973هـ) لنفسه في كتابه "لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق (المنن الكبرى الجالبة للسرور والبشرى).

وقد بين في كتابه دوافع كتابة سيرته، ومن أهمها أنه يريد أن يجعلها قدوة وعبرة لمن بعده، كما يريد أن يظهر شكر الله تعالى على آلائه ونعمه التي حباها الله إياه، وقد ذكر سيرته العلمية، وأخلاقه، ونعم الله عليه، وكثيراً من أخباره الخاصة والعامة، فرسم لنفسه صورة مثالية[3].

وكتابه – على الرغم من حجمه الكبير – إلا أنه يفتقر للأسلوب الأدبي الرفيع، وهو ملئ بالاستطرادات والتكرارات، والتقطّع في السرد القصصي الذي يجعل الصياغة غير مترابطة[4].

وخلاصة القول – في ما سبق الحديث عنه – فإن الباحث لن يجد نموذجاً تاماً للسيرة الذاتية بمفهومها الحديث، أو ما تحمل ملامح وخصائص وسمات السيرة الذاتية الحديثة، سواء أكان ذلك في الأدب العالمي القديم، أم في الأدب العربي القديم، ولكنه لا يعدم قريباً من ذلك.

---

(1) انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ): الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، (د. ط)، (د.ت)، ج8، ص 1–32.

(2) انظر: السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت911هـ): حسن المحاضرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967، ج1،ص 335–345.

(3) انظر: الشعراني، عبدالوهاب (ت 973هـ): لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق، مطبعة الباب الحلبي وأخويه، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ج2.

(4) انظر:عبدالدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية، ص 40.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا غرو في ذلك فالأدب بصفة عامة في حالة تطور مستمر، فلكل عصر أدبي ملامحه وسماته الخاصة به[1].

3- دوافع السيرة الذاتية في النثر العربي القديم:

ليس ثمة خلاف في وجود دوافع ومسوغات لكتابة السيرة الذاتية، سواء أصرح بذلك كاتبها أم لم يصرح، أما تعدد وتباين هذه الدوافع، فهو محض اجتهاد وتأويل بين الدارسين والباحثين، ولعل أبرز هذه الدوافع؛ تبعاً لحوافزها ما يلي:

أ- **التبريرية:** وهي التي كتبت للدفاع أو الاعتذار، ومن أمثلتها ترجمة "حنين بن إسحاق" التي عبر فيها عما أصابه به حساده من نكبات، مبرراً أسباب كيدهم له، ومدافعاً فيها عن نفسه، ومنها كذلك سيرة الأمير عبدالله بن بلقين، وسيرة ابن خلدون[2].

ب-**الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة:** أي أن يصل كاتب السيرة إلى مذهب خاص أو سلوك معين؛ كسيرة الغزالي في " المنقذ من الضلال"، وابن الهيثم التي احتفظ بها ابن أبي أُصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"[3].

ج- **التخفف من الثورة أو الانفعال النفسي:** ومن جسد ذلك أبو حيان التوحيدي في كتبه "مثالب الوزيرين"، و"الصداقة والصديق"، و"الإمتاع والمؤانسة"، وأبو العلاء في بعض رسائله، فقد أفصحا عن ثورة نفسية على بيئتهما ومجتمعهما[4].

---

(1) انظر :شاكر، تهاني عبدالفتاح: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص 64 .

(2) انظر :الدايم,يحيى ابراهيم عبدالله:الترجمه الذاتية,ص33.

(3) انظر :المرجع نفسه,ص34.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص34.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

د- **تصوير الحياة المثالية:** وهي أشبه **بنجوى** الذات، كتبت كي يحتذيها الناس، كما تفصح عن حياة صاحبها، وما أتيح له من خبرات روحية وخلقية وفكرية، ومن أمثلتها ما كتبه الشعراني في "لطائف المنن"، وما كتبه – كذلك – الحلاج وابن عربي[1].

هـ-**تصوير الحياة الفكرية:** ويترجم صاحب السيرة فيها كل ما أثر في تكوينه الفعلي، وتطوره الفكري، من كتب وأساتذة، ومن ذلك ما كتبه البيروني، والرازي، والسيوطي[2].

و- **الرغبة في استرجاع الذكريات:** ومن أمثلتها؛ "كتاب الاعتبار" لابن منقذ، و" طوق الحمامة" لابن حزم، و"النكت العصرية" لعمارة اليمني الذي تحدث فيه عن ذكرياته مع الوزراء والكبراء في أواخر العهد الفاطمي.[3]

ز- **الدعوة إلى التحدث بنعم الله وشكره على ذلك:** ومن ذلك ما كتبه السيوطي، والشعراني، وقد أشار إلى ذلك مباشرة إلى أن السبب هو "التحدث بنعم الله"[4].

ح-**التحرر من سجن الأشياء:** فقد يجيء على كاتب السيرة الذاتية لحظات يعاني منها من تجربة الوحدة في المجتمع، فيعمد للكتابة للتخلص من علة الاغتراب عن المجتمع. [5]

ط- الرغبة في الوجود والحضور المتميز:

وهذا ما يجسده من يكتب سيرته في مرحلة متقدمة من العمر، ولعله يتمثل في ذلك قول الفيلسوف ديكارت حينما قال قولته المشهورة: "أنا أفكر فأنا إذاً موجود".

---

(1) انظر: الدايم,يحيى ابراهيم عبدالله:الترجمه الذاتية, ص34.

(2) انظر: المرجع نفسه, ص35.

(3) انظر: المرجع نفسه, ص35, عباس, احسان:فن السيرة ,ص107 ,133 ومابعدها,شرف, عبدالعزيز :ادب السيرة الذاتية,ص16 وما بعدها.

(4) انظر: السيوطي: حسن المحاضرة، ص 335 .

(5) شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، ص 15 .

© Arabic Digital Library- Yarmouk University

ي- تسليط الضوء على بعض القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية:

وهذا الدافع قد يكون مشتركاً بين كثير من السير الذاتية، كما في سيرة أسامة بن منقذ، وابن حزم، وابن خلدون؛ حيث يعمد كاتب السيرة إلى التعبير عن هذه القضايا بعيداً عن المباشرة والتقديرية، فيتكئ على الأسلوب السردي القصصي للكشف عن أبعاد هذه القضايا وبيان وجهة نظره حولها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول:

دوافع السيرة الذاتية في "كتاب الاعتبار":

مدخل

1- رغبة المؤلف في كتابة سيرته الذاتية كما يراها، واستحضار جوانب النجاح والفشل.

2- الاعتراف واسترجاع لحظات القوة والضعف.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

دوافع السيرة الذاتية في "كتاب الاعتبار":

مدخل:

تتعدد دوافع كتابة السيرة الذاتية وتتنوع، فليس ثمة دافع واحد فحسب وراء كتابتها، إلا أن هناك عاملاً مشتركاً تتمحور حوله هذه الدوافع، هو أن السيرة الذاتية تظل – في نهاية المطاف – ضرباً من الاعترافات؛ كالرغبة في تخفيف عبء الشعور بالذنب الذي يثقل كاهل صاحبه.

ومن أشهر ذلك اعترافات القديس أوغسطين / أو أوغوسطينوس (ت 399م) التي عرفت بصفة عامة أول مثال لسيرة ذاتية حقيقة استحثتها – في الغالب – الرغبة في سرد الخطايا تخفيفاً للشعور بالذنب[1].

وقد صور حياته منذ أن كان طفلاً، حتى صار شاباً يافعاً، بما فيها من نزق ورعونة، وشك وريبة، وانحراف وراء الشهوات،ثم إيمان وتسليم [2] والسيرة الذاتية الروحية لجون بنيان (ت1688م)، إذ صور فيها واقع حياته الروحية ومعاناته، وصراعه، وارتباكه الروحي، وأخيراً فتح مصراعي قلبه على تعاليم الدين المسيحي[3].

ولا شك في أن أسامة بن منقذ، كان في ذهنه مجموعة من الدوافع والمبررات، سوغت له تدوين أهم المحطات، أو المنعطفات الحرجة، والمهمة في حياته، فسيرته الذاتية، أو ما عرف بـ "كتاب الاعتبار"، تستبطن أفكاره ومشاعره، وتؤكد دوافعها ومسوغاتها، ولعل من أبرزها:

---

(1) انظر: شرف عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، ص45.

(2) انظر: القديس أغوسطينوس: اعترافاته، نقلها إلى العربية: الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4، 1991، ص1 وما بعدها.

(3) انظر: ar. Swew.net/word-showhtm/?358315-18.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

1- رغبة المؤلف في كتابة سيرته الذاتية كما يراها، واستحضار جوانب النجاح والفشل:

إن الكتابة عن الذات، تعد بمثابة إنتاج حياة أخرى، يمكن تسميتها بالحياة النصية، يتوخى الكاتب من خلالها - وبمقصدية معينة- أن يقدم من خلالها ما يستشعر بأهميته إلى المتلقي[1].

وفي اللحظة التي يحس فيها أن أطوار حياته قد نضجت، واستوت على سوقها، وبات في وعيه أن الكتابة عن حياته الشخصية أمر ملح، يشرع عندها باستحضار جوانبها المختلفة: بنجاحاتها، ومالها من معنى أو قيمة مؤكداً فرادة التجربة، بإخفاقاتها، وفشلها: مبرراً طبيعة النفس البشرية التي ينتابها الضعف والقصور والعجز في كثير من المواقف، باعتبارها ليست صنواً للقداسة.

فالمتأمل في سيرة أسامة بن منقذ الذاتية في "كتاب الاعتبار"، يجد كثيراً من جوانب النجاح والفشل التي استحضرها لحظة كتابته سيرته، فهو لم يقتصر على ذكر مواطن النجاح والتفوق، بل ألمح إلى غير موقف في سيرته ما يشير إلى الفشل والإخفاق؛ ليتساوق مضمون الكتاب مع عنوانه، فالعبرة تكمن في المواقف التي تمثل النجاح والتفوق، كما تكمن - أيضاً- في المواقف التي تجسد الفشل والإخفاق. علاوة على ما عليه الأخيرة من جرأة، وغاية في الصراحة مع المتلقي في كشف المخبوء وما ينبغي طيه. ولقد كان أسامة بن منقذ حريصاً على اطلاع القارئ على كل ذلك دون ختل أو خب.

(1) انظر: الشاوي، عبدالقادر: الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، إفريقيا الشرق، بيروت، 2000، ص131.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن المواطن التي استحضرها أسامة بن منقذ في جوانب النجاح، قوله: "ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته، لا يُعجب بإقدامه، فو الله لقد سرت مع عمّي (عز الدين أبي العساكر سلطان)، رحمه الله، أغرنا على أفامية[1] واتفق أن رجالها خرجوا ليسيّروا قافلة فسيّروها، وعادوا، ونحن لقيناهم، فقتلنا منهم عشرين رجلاً.

ورأيت جمعة النّمري[2]، رحمه الله، وفيه نصف قنطارية. [3] قدُ طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من اللبّاد إلى فخذه، ونفذ إلى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه، فراعني ذلك, فقال: لا بأس، أنا سالم. ومسك سنان القنطارية، وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان.

فقلت: يا أبا محمود، اشتهي أتقرب من الحصن أبصره، فقال سر، فرحت أنا وهو نُخبُّ فرسينا، فلما أشرفنا على الحصن, إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا يُنّزل منه إلا من تلك الطريق، فقال لي جمعة: قف حتى أريك ما أصنع فيهم، قلت ما هذا إنصاف، بل نحمل عليهم أنا وأنت.

قال سر: فحملنا عليهم فهزمناهم، ورجعنا نحن نرى أنّا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

فوقفنا على ذلك الشرف، ننظر الحصن فما راعنا إلاُ روَيجل طلع علينا من ذلك السبيل الصعب، معه قوس ونشَّاب، فرمانا؛ ولا سبيل لنا إليه، فهَزمنا، والله ما صدّقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة.

---

(1) مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص227.

(2) لم أعثر على ترجمة له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع. وقد ورد في كتاب الاعتبار.

(3) القنطارية: حربة حديدية صغيرة.انظر: حتي,فليب:كتاب الاعتبار,هامش ص25.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ورجعنا دخلنا مرج أفامية، فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا حسرة، الذي ماكان لنا إليه سبيل، وكيف هزمنا راجل واحد، وقد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج"[1].

يشير هذا النص إلى ما عرف عند العرب بالفروسية، وهي لفظة تدل على القوة والشجاعة وميدان يتنافس فيه الفرسان، لإثبات ذواتهم، وإظهار قوتهم وبراعتهم في ميادين المعارك، دفاعاً عن الحق ومناصرة للضعيف[2].

ويكشف عما كان يتمتع به أسامة بن منقذ من شجاعة وإقدام "... ونحن لقيناهم، فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً"، ولم يفته و–هو يصور جانباً من فروسيته– أن ينبه إلى شجاعة رفيقه جمعة النّميري أبي محمود فوصفه لإقدام رفيقه فاق وصفه لإقدامه؛ "...ورأيت جمعة النّمري، رحمه الله، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من اللبّاد إلى فخذه، ونفذ إلى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه، فراعني ذلك, فقال: لا بأس، أنا سالم. ومسك سنان القنطارية، وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان".

كما يقر بشجاعة الآخر، الجندي الإفرنجي، على الرغم من وصفه له بلفظةُ (رُوَيجل) التي تفيد التحقير، والتقليل من الشأن، حيث تمكن من هزيمتهما، وقد رماهما بقوسه ونشابه، ولم يجدا سبيلا إلا الفرار من أمامه، فاستغربا كيف تخلصا منه سالمين " فوقفنا على ذلك الشرف، ننظر الحصن فما راعنا إلا رويجل طلع علينا من ذلك السبيل الصعب، معه قوس ونشاب، فرمانا ولا سبيل لنا إليه، فهزمنا، والله ما صدّقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة".

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص80–81.

(2) انظر: عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة "فرس".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعل الهزيمة التي منيا بها لم تكن بسبب قوة الإفرنجي، بدليل وصفه بالرويجل، ولكن لمفاجأته أياهما بقوسه ونشابه، فالفرار ساعتئذ من الحكمة، فـ "الفرار في وقته ظفر" [1].

وهذا ما نبه عليه أسامة بن منقذ في بداية نصه السابق ، حيث يقول: "ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته، ولا يعجب بإقدامه..."، فالثقة بالشجاعة، والإعجاب بالإقدام – أحيانا– يقودان إلى ما لا يحمد عقباه.

ومن المواقف التي يتبدى فيها استحضار أسامة بن منقذ لجوانب النجاح، قوله: "فلما وصلنا عَسْقَلان[2] سحراً، ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا الإفرنج عند طلوع الشمس، فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت[3] والي عسقلان، فقال : ارفعوا ارفعوا أثقالكم، فقلت: تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها؟ قال: نعم.

قلت لا تخف، هم يرونا في البرية ويعارضونا، إلى أن وصلنا عسقلان، ما خفناهم نخافهم الآن، ونحن عند مدينتنا ؟ ثم إن الإفرنج وقفوا علىُ بعدٍ ساعةً، ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان.

فدرت على سرب الرّجالة وقلت يا أصحابنا، ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم. فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا، إن نُصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم، فامتنعوا من الرجوع. فتركتهم

---

(1) الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (ت 430 هـ): خاص الخاص، شرحه وعلق عليه: مأمون بن يحيى الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص 38.

(2) مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبريل. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص122.

(3) والي عسقلان نيابة عن الخليفة الفاطمي، وكان من الأمراء المتقدمين في الدولة. انظر: المقريزي,تقي الدين أحمد بن علي(ت845هـ): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا:تح جمال الدين الشيال،دار قباء للطباعة والنشر, القاهرة,1984, ج3، ص221.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومضيت إلى الإفرنج، وقد حّطوا خيامهم ليضربوها، فاحتطنا بهم، وأعجلناهم عن طي خيامهم، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين.

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الفضوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غَنَاء، فرجع الإفرنج حملوا على أولئك، فقتلوا منهم نفراً. فانهزمت الرجالة، الذين رددتهم فما رجعوا، ورموا ترسهم. ولقينا الإفرنج، فرددناهم. ومضوا عائدين إلى بلادهم، وهي قريبة من عسقلان.

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون، وقالوا: كان أسامة بن منقذ أخبر منا، قال لنا: ارجعوا، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا"[1].

يصور هذا النص – علاوة على شجاعة أسامة بن منقذ وفروسيته، خبرته في الحرب وحنكته في مواجهة الأعداء, وقد اكتسب ذلك من خلال المعارك والمصافات التي خاضها مع الإفرنج : "فدرت على سرب الرّجالة وقلت يا أصحابنا، ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم. فإن نُصرنا عليهم فأنتم تلحقونا، وإن نُصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم".

فهذا أسلوب من الأساليب التكتيكية في القتال، حيث يتطلب من القائد أن لا يزج بكل جنده في الاشتباك مع العدو، بل يبقي على بعضهم سالمين، وذلك من أجل أن يحموا ظهور المقاتلين، حتى لا يكر الأعداء عليهم، فيوقعوا بهم خسائر كبيرة.

ولذلك نصح أسامة بن منقذ الجند الذين خرجوا لمساعدته (الرّجالة) من حصن عسقلان قائلاً لهم: "يا أصحابنا، ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم. فإن نُصرنا عليهم فأنتم تلحقونا، وإن نُصروا

---

(1) منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 38– 39.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم," وكان الجيش الإسلامي في هذه الفترة، أسرع من الفرنجة، وأكثر مرونة منهم؛ لسرعة عدو خيولهم ورشاقتها، وخفة أسلحتهم[1].

وهذا ما يلتمس من قول أسامة بن منقذ " وقد حطوا خيامهم ليضربوها، فاحتطنا بهم، وأعجلناهم عن طي خيامهم، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين".

ومن التكتيك العسكري التي يكشف عنها هذا النص التزام الجند بأوامر القادة، واستجابتهم لتعاليمهم، وألاّ يكون بينهم من لا يجيد القتال، والتحلي بالتدريب والانضباط، وقد أشار إليهم بقوله: "..تبعهم من الفضوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء، فرجع الإفرنج, حملوا على أولئك، فقتلوا منهم نفرا. فانهزمت الرجالة، الذين رددتهم فما رجعوا، ورموا ترسهم. ولقينا الإفرنج، فرددناهم. ومضوا عائدين إلى بلادهم، وهي قريبة من عسقلان" [2].

وتتجلى سداد رأيه، وصواب مشورته، عندما عاد الذين انهزموا من الرجالة، وهم يتلاومون، ويقولون كان أسامة بن منقذ أخبر منا، إذ قال: "ارجعوا، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضح أمرنا[3].

ولم يقتصر أسامة بن منقذ على استحضار المواقف التي يظهر فيها شجاعته وفروسيته وشدة بأس، وحسن إدارته للمواجهات مع الإفرنج فحسب، بل ثمة مواقف أخرى، لا تقل عن ألأولى في البأس والقوة؛ وهي المشاهد التي كانت مع الحيوانات الضارية، ولاسيما الأسود، يقول في ذلك: "وشاهدت من الأُسد ما لم أكن لأظنه، ولا اعتقدت أن الأسد كالناس؛ فيها الشجاع، وفيها الجبان.

---

(1) انظر: سميل، ربني: فن الحرب عند الصليبين في القرن الثاني عشر (1097 – 1193)، تر: محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1982، ص132.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص139.

(3) المصدر نفسه، ص39.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذلك أن جوبان[1] الخيل جاءنا يوماً يركض، وقال: في أجمة تل التلول[2] ثلاثة سباع، فركبنا، فخرجنا إليها، وإذا لبؤة خلفها أسدان، فدرنا في تلك الأجمة، فخرجت علينا اللبؤة فحملت على الناس ووقفت.

فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ، رحمه الله، طعنها، قتلها، وتكسر رمحه فيها، ورجعنا إلى الأجمة، فخرج علينا أحد السَّبْعَين فطرد الخيل، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد الخيل، فإن الأسد إذا خرج من موضع لابد له من الرجوع إليه بلا شبهة، وجعلنا أعجاز خيلنا إليه، ورددنا رماحنا نحوه، ونحن نعتقد أنه يقصدنا، فَنُنشب الرماح فيه فنقتله، فما راعنا إلا وهو عابر علينا–كالريح – إلى رجل من أصحابنا, يقال له: سعد الله الشيباني، فضرب فرسه، رماها، فطعنته، وسَّطُت القنطارية فيه، فمات مكانه.

ورجعنا إلى الأسد الآخر، ومعنا نحو من عشرين راجلا من الأرمن الأجناد: رماة، فخرج السبع الآخر، وهو أعظمها خلقة يمشي، وعارضه الأرمن بالنشاب، وأنا معارض الأرمن أنتظره، يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم، فأطعنه وهو يمشي، وكلما وقعت فيه نشابة قد هدر ولوح بذنبه، فأقول: الساعة يحمل، ثم يعود يمشي، فما زال كذلك حتى وقع ميتاً، فرأيت من ذلك الأسد شيئاً ما ظننته"[3].

ثمة حديث في هذا النص عن طبائع الأسود، فمنها الشجاع، وفيها الجبان "ولا اعتقدت أن الأسد كالناس؛ فيها الشجاع، وفيها الجبان" وأن "الأسد إذا خرج من موضع لابد له من الرجوع إليه

---

(1) لفظة تركية معناها الراعي أو السائس. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، حاشية ص 127.

(2) ذكر محقق الكتاب /السامرائي : أنه لم يقف على ترجمة له. انظر: ابن منقذ,أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص91.

(3) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 127– 128.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

بلا شبهة" وتصوير أسامة بن منقذ لشجاعة أخيه بهاء الدولة أبي المغيث منقذ، وجرأته في الحمل على اللبؤة" فخرجت علينا اللبؤة فحملت على الناس ووقفت.

فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ، رحمه الله، طعنها، قتلها، وتكسر رمحه فيها". علاوة على وصفه جسارته، عندما اعترض مع أخيه أحد السبعين:" فطعنته، وسَّطُت القنطارية فيه، فمات مكانه".

فغالباً ما يرتبط الأسد في الأدب العربي، ولا سيما الشعر منه بالقوة، ومن ثم بالمفاخرة، وإضفاء العظمة والبأس، سواء أكان ذلك من خلال الحديث عن الأنا أم عن الآخر/ الممدوح[1].

ومن ذلك ما رواه، وهو في صحبة والده، إذ يقول:"...ومرة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف في قاعة داره، وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز[2]، رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها، فحملت سُلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية، وصعدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية، وهي نائمة، وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أخر رأسها- وخرجت التقّت على يدي- إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار، وهي ميتة" [3].

وهذا يدل على أن والده، رحمه الله، ما كان ينهاه يوماً عن ركوب المخاطر، ومواجهة المهالك، مع ما كان فيه من إشفاق وإيثار له[4].

---

(1) البستاني، بتول حمدي: المعجم الشعري عند بشر بن أبي خازم: الطلل والحيوان – أنموذجان – (دراسة فنية)، مجلة التربية والعلم، بغداد، مج 17، ع 4، 2010، ص152.

(2) الإفريز: الشق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (فرز).

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص125.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص124.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن المواطن التي تتجلى فيها نجاحاته, توفقه في مهامه السياسية, ورأبه للصدع والخلاف بين رضوان الولخشي[1] والأمير معين الدولة أنَر[2]، رحمه الله، على سبيل المثال، حينما أراد رضوان أن ينظم إلى أمين الدولة طغدكين أتابك[3]، رحمه الله، فقال الأمير معين الدين لأسامة بن منقذ: هذا الرجل/ رضوان إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كبير.

وهذه الخلافات كانت من طبيعة ذلك العصر الذي امتاز بتعدد الإمارات، وما عرف آنذاك بالإقطاعات العسكرية التي أدت إلى استقلال القادة بإماراتهم، مما أفضى بالتالي إلى هذه الخلافات والمشاحنات التي كانت – في الغالب– لأمور شخصية[4].

فشخص إليه أسامة بن منقذ ليرده عن أتابك الذي كان يحاصر بعلبك، ومن ثم محاصرة دمشق ليأخذها، فما زال به حتى ثناه عن مقصده بانضمامه إلى أتابك الذي كان يريد أن يوقع به, بعد أن تنتهي مساعدته إياه في حصار الشام والاستيلاء عليها، فقال له إن أخفق أتابك في السيطرة على الشام: " تتمنى ذلك الوقت أن ترى حجراً من حجارة الشام، فلا تقدر عليها، وتذكر حينئذ كلامي، وتقول: نصحني ما قبلت ! فأطرق مفكراً لا يدري ما يقول.

---

(1) رضوان بن الولخشي: تولى وزارة الحافظ لدين الله عبدالمجيد العسقلاني بعد هزيمة بهرام الأرمني، ثم انهزم إلى الشام، وعاد إلى القاهرة، فاعتقل، ثم هرب من السجن وقتل. انظر: المقريزي: اتعاظ الخنفا، ج3، ص 169– 173، 183–184.

(2) معين الدولة أنر: مملوك طغدكين صاحب دمشق، حفظ دمشق حين قتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغدكين سنة 539هـ، وهو أكبر أمراء دمشق,وكان صديق لأسامة بن منقذ, توفي سنة 544 هـ. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج9، ص 395 وما بعدها. ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت 555هـ): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1983، ص 393– 398.

(3) أتابك طغدكين: كان من أمراء تاج الدولة تتش السلجوقي صاحب دمشق، حكم دمشق إلى سنة 522 هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص 519– 521.

(4) انظر: الطواهية، فوزي خالد: الإقطاع العسكري (الحربي) في بلاد الشام في العصر الأيوبي (570– 648هـ/ 1174– 1250م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، مج6، ع3، 2010، ص 3 وما بعدها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثم التفت إلي وقال: ماذا أفعل ؟... وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار... ودار العقيقي، ويخرج لأصحابه ديوان، وكتب لي خطه بذلك، وكان كاتباً حسناً" [1].

وفي هذا دلالة على حسن سياسة أسامة بن منقذ، والجرأة في إسداء الرأي، وثقة القادة في فطنته وقدرته على الإقناع.

ولعل ذلك ما دعا السلطان صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله، إلى أن يجعله في خاصته، فقد" كان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحل مشكلاته" [2].

ويخبرنا العماد الأصفهاني أن ابن أسامة بن منقذ عضد الدين أبو الفوارس مرهف كان – أيضاً – جليس صلاح الدين الأيوبي، وقد كتب ديوان أبيه لصلاح الدين، وهو لشغفه به، يفضله على جميع الدواوين، ولم يزل هذا الأمير مصاحباً لصلاح الدين بمصر والشام، إلى آخر عصره، وتوطن بمصر، فلما جاء أبوه أنزله صلاح الدين أرحب منزل، و أورده أعذب منهل، و مّلكه من أعمال المعرة ضيعة رغم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، و أعطاه بدمشق داراً و إدراراً, وإذا كان بدمشق جالسه وآنسه, وذاكره في الأدب ودارسه[3].

ويسجل أسامة بن منقذ في "كتابه الاعتبار" فضل صلاح الدين عليه، إذ يقول: ".. فناداني إليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين... فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل، وحملني إلى بابه، العالي بأنعامه الغامر الجزيل... فغمرني بغرائب

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص53–54.

(2) أبو شامة المقدسي: كتاب الروضتين، ج2، ص286.

(3) انظر:الأصفهاني، خريدة القصر (قسم شعراء الشام)، ج1، ص 498– 499.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الرغائب وأنهبني من أنعامه أهنأ المواهب، حتى رعى لي بفائض الكرم ما أسلفت سواه من الخدم..."[1].

هذه بعض جوانب النجاح التي استحضره أسامة بن منقذ في "كتابه الاعتبار"، وهي بلا شك نماذج دالة من كتاب مفعم بالكثير منها، على ما كان يتحلى به أسامة بن منقذ من فروسية وحنكة في الحرب، فضلاً عن شجاعة الرأي، وسداد المشورة، والحكمة السديدة، والرأي المسموع، وقد اكتسب ذلك من طول مجالسته الملوك والأمراء،القادة، وكثرة الحروب والمعارك التي خاضها ضد الصليبيين.

أما المواقف التي صور فيها جوانب الفشل، فقد سجلها في كتابه كذلك؛ لأن العبرة منها لا تقل عن أهمية الاتعاظ بمواقف النجاح، ولهذا سمى كتابه "الاعتبار" حتى ينسجم العنوان مع المضمون، فالحياة أمشاج من النجاح والفشل، والعسر واليسر، والتوفيق والخيبة، والعبرة مرهونة بكل ذلك.

ولعل من أبرز المواقف التي تصور هذا الجانب, حديثه عن الهزيمة أمام إفرنج أنطاكية، يقول: "وأغار علينا عسكر أنطاكية، وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إليّ لعلِّي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرون عليّ منهزمين. فعبر عليّ في من عبر محمود بن جمعة، فقلت: قف يا محمود فوقف لحظة، ثم دفع فرسه، ومضى عني، ووصلني أوائل خيلهم، فاندفعت بين أيديهم، وأنا راد رمحي إليهم ملتفت أنظرهم, لا يتسرع إليّ منهم فارس يطعني، وبين يدي جماعة من أصحابنا ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل.

فَنَدستْ فرسي بصدرها رجلاً من أصحابنا، فرددت رأس فرسي على يساري، فضربتها بالمهاميز فقفزت الحائط، فضبطت حتى صرت أنا والإفرنج مصطفين وبيننا الحائط، فتسرع منهم

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص183.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر. فظننت أن ما [ليس] تحته درع، فتركته حتى تجاوزني، وضربت الفرس بالمهاميز فقفزت الحائط، وطعنته فمال إلى أن وصل رأسه ركابه، ووقع ترسه والرمح من يده والخوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا إلى رجالنا، ثم عاد انتصب في سرجه، وكان عليه زردية تحت التشهير، فما جرحته الطعنة. وأدركه أصحابه، ثم عادوا وأخذ الرجالة الترس والرمح والخوذة"[1].

يصور هذا النص المعارك التي كانت دائرة بين المسلمين والصليبيين, فهي بين كر وفر، فتارة ينهزم المسلمون أمامهم، في حين يولي الصليبيون أدبارهم أمام المسلمين تارة أخرى.

فمثل هذه النصوص تساعدنا على التعرف إلى طبيعة الآخر/الإفرنج وهويته، وأقصد – هنا– الاستعداد والتهيوء للقتال والحرب على الصعيدين العسكري والنفسي، وقد قدم لنا أسامة بن منقذ هذه الصورة بعيداً عن النمطية التي تسعى إلى إضفاء الصفات الإيجابية عليه, وعلى من حوله في مقابل التفنن في رسم الصورة السلبية للآخر، ولا سيما إذا تعارضت المصالح، فهو لم يستغل الانفعالات النفسية المكثفة، ليتوجه بالصورة إلى العواطف لا إلى العقول، بل كان يرسم الصورة كما يمليها الواقع عليه، واقع عسكري وحربي, تحدث عنه في غير موضع من سيرته.

وهي صورة تكونت بفعل التجارب المباشرة، وغير المباشرة, والصورة –خاصة– إذا كانت واقعية "تمثل لأصحابها واقعاً صادقاً ينظرون من خلاله إلى محيطهم، فيقدرونه و يفهمونه"[2].

ومن هذا القبيل ما رواه حكاية عن العقاب الشاعر، رجل من المغرب كان من أجناد المسلمين في الشام، قال: "خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق, ومعه أربعة فوارس وأربعة رجالة، وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها، قال: بينا نحن نسير إذا فارس مقبل من صدر البرية.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 84– 85.

(2) عجوة، علي: العلاقات العامة والصور الذهنية، عالم الكتب، القاهرة، 1983، ص10.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فجاء يسير حتى صار بالقرب منا، فقال: خلوا عن الجمال، فصحنا عليه وشتمناه، فأطلق حصانه علينا،فطعن منا فارساً رماه عن فرسه وجرحه, فطردناه فسبق، ثم عاد إلينا، وقال: خلوا عن الجمال، فصحنا عليه وشتمناه فطعن راجلاً منا، أوثقه بالجرح.

وتبعناه فسبقنا، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا، فأستقبله رجل منا، فطعنه صاحبنا، فوقعت الطعنة في قربوس[1] سرجه، فانكسر رمح صاحبنا، وطعنه الفارس فجرحه، ثم حمل علينا، فطعن رجلاً منا فصرعه، وقال: خلوا عن الجمال وإلا أفنيتكم. قلنا: تعال خذ نصفها. قال: لا، احبسوا منها أربعة اتركوها وقوفاً، وخذوا أربعة وامضوا. ففعلنا, وما صدقنا نخلص بما سلم معنا. وساق هو تلك الأربعة ونحن, نراه مالنا فيه حيلة ولا طمع، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال"[2].

يصور هذا النص جانبا من فروسية الإفرنج وشجاعتهم ,كما بدت في الواقع الحربي؛وذلك من خلال صراعهم مع المسلمين,وفيه اعتراف صريح بحضورهم اللافت في هذا الجانب من جهة .وعدم تشويه الذات بإعلائها وتقديسها,والشطط في الرؤية المتعصبة التي تعشي البصيرة ,وتنفي صورة الآخر.

ومن هذا قوله في وصف إحدى غارات الإفرنج: " وشاهدت... أن الإفرنج، لعنهم الله, أغاروا علينا ثلث الليل الآخر، فركبنا نريد نتبعهم، فمنعنا عمي عز الدين، رحمه الله، من اتِّباعهم، وقال:

([1]) القربوس حنو(جانب) السرج وهما قربوسان, والجمع قرابيس. انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة (قربس).
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص92-93.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

هذه مكيدة. والإغارة لا تكون بالليل، وخرج من البلد رجالة خلفهم ما علمنا بهم. فوقع الإفرنج ببعضهم عند رجوعهم، قتلوهم وسلم بعضهم.." [1].

وفي هذا النص صورة لبعض مكائد الإفرنج في حربهم مع المسلمين، وما كانوا عليه من خبرة ودراية في أساليب القتال، واعتمادهم على الخدعة في الإيقاع بخصمهم، كما يصور عدم انضباط بعض الجند، ومخالفتهم لأوامر القادة، وعدم انصياعهم لتعاليمهم العسكرية، مما يفضي بالتالي إلى الهزيمة، أو- على الأقل- إلى الخسارة. وهذا- بطبيعة الحال- يعني أن الاعتماد على مبدأ الاقتصاد بالقوة، وحسن تدبيرها أمر بالغ الأهمية في تحوير مسيرة القتال، ولاسيما إذا كان المسلمون أقل عدداً أو عُدة[2].

ومن ذلك ما رواه في خسارته لبعض رفاقه بسبب قلة الخبرة في الحرب، يقول: "..أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو بن تليل[3] من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين، رحمه الله، فوصلنا الى حمص، فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له: أنا أتقدم أبصر كنسية بعلبك إلى حين تصل. قال افعل. فركبت ومضيت، فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده، يقول قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها، فاركب والقني إلى الجبل، فركبت ولقيته، فصعدنا في الجبل، فرأينا الحرامية في واد تحتنا والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي، فقال بعض أصحابه: تنزل إليهم ؟ قلت لا تفعل، ندور على الجبل, ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى الغرب، ونأخذهم- وكانوا من بلاد الإفرنج -فقال: آخر إلى ماندور على الجبل [نكون]

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص181.

(2) انظر: نعمة، كاظم هاشم: الوجيز في الاستراتيجية، شركة إياد للطباعة الفنية، بغداد، 1988، ص45.

(3) هو: أحد المرشحين لتولي الوزارة في مصر بعد موت أسد الدين شيركوه، ثم انضم إلى صلاح الدين، فأرسله إلى إنقاذ دمياط من الفرنج. انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ط)، (د. ت)، ص 141- 142.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قد وصلنا إليهم، وأخذناهم. فنزلنا، فلما رآنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي: اصعد إليهم، فحرصت على الطلوع، فما قدرت.

وكان على الجبل منا خيالة ستة[أو] سبعة. فترجلوا إليهم، وجاؤوا يقودون خيلهم معهم وأولئك في جماعة، فحملوا على أصحابنا, فقتلوا منهم فارسين، أخذوا حصانيهما وحصاناً آخر، وسلم صاحبه, ونزلوا من الجانب الآخر بالغنيمة، وعدنا نحن، وقتل منا فارسان، وأخذ منا ثلاثة حُصن والقافلة. فهذا تغرير لقلة المخبرة بالحرب" [1].

ويلخص أسامة بن منقذ في هذه الواقعة–التي خسر فيها مع أصحابه فارسين وثلاثة أحصنة– السبب، حيث رد ذلك إلى قلة المخبرة في الحرب.

ويمكن الإشارة إلى بعض المواطن التي تبدت فيها قلة الخبرة في هذا النص، منها: عدم المباغتة والمفاجأة للعدو، وقد تجلى ذلك من خلال الحديث المطول الذي دار بينهم :" فقال بعض أصحابه: تنزل إليهم ؟ قلت: لا تفعل, فنزلنا إليهم" فلما نزلوا إليهم، رأوهم[رأهم] الحرامية، فصعدوا في الجبل، ولما أراد أسامة بن منقذ الصعود إلى الجبل لم يقدر على ذلك؛ وبذلك تمكن منهم العدو، فلو أحسنوا المباغتة وسرعة الهجوم، لأوقعوهم بين قتيل وأسير؛ لأن في المباغتة اضطراب لصفوف الجند، وإرباك لقادته، فيدب الرعب فيهم، ويفقدهم توازنهم، وعند ذلك يتحقق النصر عليهم[2].

وكذلك عدم القدرة على الحركة والانتقال والمناورة، المعتمدة على قوة الإعداد، ومتانة التدريب[3] وبدا ذلك من خلال تفريغ الجبل من العدد الكافي من الجند "وكان على الجبل منا خيالة

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 172– 173.

(2) انظر: الخلفات، جمال، وأسعد، بهاء الدين: العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، دار المنارة، عمان، 1983، ص10.

(3) المومني، أحمد: التعبئة الجهادية في الإسلام، دار الأرقم، عمان، 1986، ص234.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ستة سبعة فترجلوا إليهم" منهم ستة أو سبعة، وربما تتجاوز عددهم هذا العدد بكثير، كما توحي عبارته "فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين، أخذوا حصانيهما وحصاناً آخر".

ويبدو من خلال النماذج الأربعة التي عرضناها سابقا، أن أسامة بن منقذ كان حريصاً على استرجاع جوانب الفشل والإخفاق، بقدر حرصه على استذكار جوانب النجاح والتفوق في سيرته؛ لأن الغرض من ذلك هو الوقوف على أسبابها، وأخذ العبرة منها، ولا سيما فيما يتعلق بالصراع الإسلامي الصليبي.

ولعل ذلك ما يفسر إهداء أسامة بن منقذ "كتابه الاعتبار" لصلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى؛ "ليستثير عزم صلاح الدين، حتى يجَّد في جهاد الفرنج" [1] وإن كان أسامة بن منقذ لم يفصح عن ذلك مباشرة في كتابه، وربما يكون ذلك قد جاء في مقدمة كتابه التي ضاعت أسوة بما ضاع, أو فقد من تراثنا العربي الإسلامي الكبير.

2- الاعتراف واسترجاع لحظات القوة والضعف

إن المتأمل في أدب السيرة الذاتية الغربية أو العربية على حد سواء، يجد نفسه أمام جدلية مهمة، هي: جدلية "الخفاء والتجلي" إذا جاز التعبير؛ بمعنى التركيز على المسموح به تارة، والبوح بالمحظور، وإخرجه إلى من ساحة الغياب إلى دائرة الحضور تارة أخرى، ويتفاوت كتاب السيرة الذاتية في تسليط الضوء على الممنوع أو المحظور به، لأسباب ذاتية (نفسية/سيكولوجية)، حيث يستحيون من التفكير في أمر لا يستطعون أن يبوحوا به أمام الآخرين.

وهذا يتعلق بالجانب الشعوري/الذاتي (السري جداً/ العَوْري)، فـ "معظم محتويات مفهوم الذات الخاص محرمة، أو محرجة، أو مخجلة، أو بغيضة، أو معيبة، أو مؤلمة، غير مرغوب بها

(1) السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص21.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اجتماعياً"[1]، أو السلسلة من الضغوط الداخلية والخارجية، تجعله تحت رحمة سلطات قامعة وكابحة، منها: سلطات زمنية، وأخرى روحية، وثالثة جمالية[2].

ولذلك طوى أسامة بن منقذ أخباره العاطفية، وكثيراً من أخباره مع أولاده وزوجاته، ولم يوضح أسباب عدد من التحولات المفاجئة في حياته[3] وإذا كان "كتابه الاعتبار" تعبيراً عن صراع الذات مع محيطها الخارجي، وتجليات هذا الصداع بكل أبعاده وإيماءاته ودلالاته، فهل استطاع أسامة بن منقذ أن يغوص في أعماق ذاته، وأن يسبر أبعاد هذا الصراع، ويرصد لحظات القوة والضعف فيه.

ولعل في ما سيعرضه الباحث من مواقف يمكن أن تقدم إجابات عن السؤال المطروح سابقاً؛ لأن كثيراً من السير الذاتية، كتب "في لحظات صراع الذات مع العالم الخارجي، وكان الهرب نحو الذات بغية استكشاف ما فيها، من أجل التعالي عن الواقع، أو التصالح معه، أو من أجل تغييره، بداية طبيعية"[4] .

فمن المواقف التي أظهرت مواطن القوة في سيرة أسامة بن منقذ، وصفه لحسن سياسية عمه، وصاحب قلعه جعبر[5] وغيرهما. يقول في حسن سياسة عمه عز الدين أبي العساكر: "ومن ذلك أن

---

(1) سويف، مصطفى: مقدمة في علم النفس الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص181.

(2) انظر: تامر، فاضل: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2004، ص10.

(3) انظر: منصور، إبراهيم محمد: قراءات في السيرة الذاتية في الأدب العربي، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص30.

(4) الشيخ، خليل محمد: سيرة جبرا إبراهيم جبرا الذاتية وتجلياتها في أعماله الروائية والقصصية، مجلة أبحاث اليرموك "سلسلة الآداب واللغويات، جامعة اليرموك، إربد، مج7،ع 1، 1989، ص73.

(5) قلعة على الفرات، كانت قديماً تسمى دَوْسر، ملكها رجل من بني قُشير أعمى يقال له: جَعبر بن مالك، كان يخيف السبيل ويلتجئ إليها. انظر: يا قوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص141-142.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

روجار[1] صاحب أنطاكية [2] كتب إلى عمي يقول: قد نفذت فارساً من فرساني في شغل مهم إلى القدس. اسأل تنفذ خيلك تأخذه من أفامية, ويوصلونه إلى رَفْنيّة[3].

فركب وأرسل إليه من أحضره. فلما لقيه قال: قد نفّذني صاحبي في شغل وسرٍّ له، لكني رأيتك رجلاً عاقلاً، فأنا أحدثك به. فقال له عمي: من أين عرفت أني عاقل وما رأيتني قبل الساعة؟ قال لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامراً. فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك. وحدثه بما جاء فيه"[4].

والربط – هنا – جلي بين حسن السياسة وعمارة البلاد، وهو ما ألمح إليه ابن خلدون من أن العمران لا بد له من حاكم يرجع إليه، يسوس رعيته بشرع منزل من عند الله، وإلى سياسة عقلية، توجب انقياد الرعية لهذا الحاكم، وبذلك تتحقق لهم المنفعة في الدنيا والآخر[5].

وقد عرف بنو منقذ بتقواهم وصلاحهم، ورجاحة عقولهم، ولذلك ازدهرت البلاد التي حكموها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) هو: ابن أخت تنكرد الذي ملك أنطاكية سنة (506هـ)، ودام حكمه إلى سنة (513هـ)، وقد قتل في وقعة البلاط. انظر: ابن منقذ، أسامه: الاعتبار، تح: السامرائي، هامش ص99.

(2) مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر العاصي، تبعد 30كم من شاطئ البحر المتوسط، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء، وعذوبة الماء وكثرة الفواكه، وسعة الخير، لها سور له ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 266 – 270.

(3) كورة ومدينة من أعمال حمص، يقال لها: رفنية تدمر، وقال قوم: بلدة عند طرابلس الشام. انظر: المصدر نفسه، ج3، ص55.

(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 109.

(5) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ): مقدمة ابن خلدون، منشورات دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص1303 .

أما ما وقع لنجم الدولة مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر مع جوسلين، فيقول أسامة بن منقذ في ذلك: "وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم[1]، رحمه الله، وذلك أن جوسلين[2] أغار على الرقة والقلعة، فأخذ كل ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة, ونزل مقابلة القلعة وبينهم الفرات، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه, وعبر الفرات إلى جوسلين، وبينهما معرفة قديمة، ولمالك عليه جميل.

وظن جوسلين أن في الزورق رسولاً من مالك، فجاءه واحد من الإفرنج، وقال: هذا مالك في الزورق، وقال ما هو صحيح!! فأتاه آخر، قال: قد نزل مالك من الزورق، وهو جاي/جاء يمشي، فقام جوسلين والتقاه وأكرمه, ورد عليه جميع ما كان أخذه من الغنائم والسبي، ولولا سياسة نجم الدولة كان خُرِّب بلده"[3].

ويتجلى حسن السياسة في هذا النص في حل الخلافات بالوسائل الدبلوماسية، وعدم اللجوء إلى الحرب واستعمال العنف.

وهذه الوسائل كانت مألوفة بين الأطراف المتصارعة[4] ,وهو ما يعرف بالدبلوماسية الحديثة بالأمن الجماعي الذي ينكر العنف وسيلة لحل الأزمات الخارجية، ويركز على الوسائل السلمية في تجاوزها[5].

---

(1) نجم الدولة، مالك بن سالم، صاحب قلعة جعبر. انظر: ابن العديم: بغية الطلب, ج2، ص 3480– 3487.

(2) جوسلين صاحب تل باشر إذ ذاك. انظر: المصدر نفسه،ج2, ص 3481.

(3) ابن منقذ, أسامة:الاعتبار,تح:السامرائي,ص112.

(4) انظر:فرج، أنور محمد: نظرية الواقعية في العلاقات الدولية: دراسة نقدية مقارنة في ضوء النظريات المعاصرة، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، بغداد، 2007، ص28.

(5) انظر:مقلد، إسماعيل صبري: العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1991، ص293.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن المواقف التي تجسد مواطن القوة في سيرة أسامة بن منقذ ما أورده أثناء حديثه عن فدية الأسرى، حيث كان يفتديهم بماله الخاص لوجه الله تعالى، يقول: ".... فكان الإفرنج يسوقون أسراهم إليّ لأشتريهم، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه"[1]، وكان هؤلاء الأسرى من شتى بقاع البلاد الإسلامية[2].

ولعل عادة افتداء الأسرى كانت أيضاً شيمة من شيم الأمراء الذين كان أسامة بن منقذ يخدم في معيتهم، يقول في ذلك متحدثاً عن الأمير معين الدين أنر.

" ... وجئت إلى دمشق، فقلت للأمير معين الدين، رحمه الله: قد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم، والآن قد وصلت إلى بيتي، إن أردتهم وزنتَ ثمنهم، وإلا وزنته أنا، قال لا بل أنا أزن، والله، ثمنهم، وأنا أرغب الناس في ثوابهم، وكان، رحمه الله، أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة، ووزن ثمنهم"[3] .

ومن ذلك ما يشير إلى حضور ذهن أسامة بن منقذ في القتال، حيث لم تمنعه دهشة القتال من أن يختار الرجل المناسب الذي أمنه على أسرار الحرب، يقول: "... كان عمي عز الدين، رحمه الله، يتفقد مني حضور فكري في القتال ويمتحنّي بالمسألة. فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة[4]، وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 103- 104.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص 104.

(3) المصدر نفسه، ص 104.

(4) شهاب الدين بن قراجة صاحب حماة، توفي سنة (507هـ). انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 148.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً، وقال لي: خذهم وسر إليهم. فمضينا نتراكض والتقينا بوادر خيلهم, فكسرناهم وطعنا فيهم, وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه. ونفذت فارساً من أصحابي إلى عمي وأبي، رحمهما الله، وهما واقفان, ومعهما باقي العسكر وراجل كثير أقول لهما: سيروا بالرجالة فقد كسرتهم، فسارا إلي. فلما قُربا حملنا عليهم، كسرناهم، ورموا خيلهم في الشاروف[1]، وعبروه سباحة، وهو زائد ومضوا، وعدنا بالنصر. فقال لي عمي: أي شيء نفذت تقول لي؟ قلت نفذت أقول لك: تقدم بالرجالة فقد كسرناهم، فقال: مع من نفّذت إلى؟ قلت: مع رجب العبد[2] . قال: صدقت، ما أراك كنت إلاّ حاضر القلب ما أدهشك القتال[3].

ويلمح من ذلك صفات القائد الذي ينبغي أن يتمتع بعقل كبير, وقلب كبير, أيضاً؛ أي أنه ذكي وشجاع، وهذا الشخص الذي وهبه الله تعالى الموازنة المطلوبة بين العقل والقلب؛ ليخلق منه قائداً ذكياً شجاعاً، مقتدراً على تجاوز الصعاب والمحن[4] .

ومما يصور جوانب القوة في سيرة أسامة بن منقذ ما أورده في الترهيب والتخييل لجيش العدو، وهو ما يقع في باب الخدعة في الحرب، يقول: " وقد سرت مع عمي، رحمه الله، من شيزر يريد كفر طاب[5]، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على كفر طاب من غلّة وقطن، فانتشر الناس في النهب، وخيل كفرطاب قد ركبت، ووقفت عند البلد، ونحن بينهم وبين الناس

---

(1) نهر من روافد نهر العاصي، انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، هامش ص 124.

(2) لم أعثر على ترجمة له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع. وقد ورد في كتاب الاعتبار,ص124.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 123- 124.

(4) انظر:البلداوي، عبد الإله علي حسن: كشكول القائد السياسي والعسكري والأمني، مركز عبكرا للدراسات والبحوث، بغداد، 2007، ص 12.

(5) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، وهي قرية معطشة أعز الأشياء عندها الماء، وليس لهم إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار. انظر: القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 628 هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د.ت)، ص 148.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المنتشرين في الزرع والقطن، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال: جاءت خيل أفامية، فقال عمي: تقف أنت مقابل خيل كفرطاب، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية.

فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون، والإفرنج يعتقدون أننا في جماعة، فهم يجتمعون ويصيحون, ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا, ونحن لا نتزعزع، فيرجعوا، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الإفرنج الذين جاؤوا من أفامية. فقال له بعض غلمانه: يا مولاي ترى ما فعل (يعنيني)؟ تخلّف عنك، وما سار معك للقاء خيل أفامية، فقال له عمي: لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفر طاب وراجلها كانوا أخذوا هذا العالم كله، فكان الترهيب والتخييل للإفرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم؛ لأننا كنا قلة وهم في جمع كثير"[1] .

ولعل في عبارته الأخيرة ""ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيّلون للفرنج, ويعودون إلى شجر الزيتون، والإفرنج يعتقدون أننا في جماعة" ما يعرف اليوم في العلوم العسكرية الحديثة بـ "الإستراتيجية"؛ أي فن وتقنية استغلال كل المصادر المتاحة لتحقيق أهداف الحرب[2] .

كما تعطينا فكرة عن فكر أسامة بن منقذ العسكري، وفن تعامله مع الموقف، والمحافظة على عزيمة الجند للقتال من جهة، وإيقاع الفوضى والاضطراب في صفوف الأعداء من جهة أخرى.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 170.

(2) انظر: محمد، فتحي عبد العزيز: الاستراتيجية والتكنيك بين المسلمين والروم "الصدام المبكر"، مجلة كان التاريخية،مجلة الكترونية, ع9، السنة الثالثة، أيلول، 2010، ص 8.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما المواقف التي تتبدى فيها لحظات الضعف، فكثيرة أيضاً ولعل منها، قوله: "وحدثني الرئيس سهري، وكان في خدمة الأمير شمس، الخواص آلتونتاش [1] صاحب رفنية، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد[2] صاحب حماة عداوة وخلف، قال: أمرني شمس الخواص أن أخرج أُقدِّر بلد رفنية، وأبصر زرعه.

فخرجت ومعي قوم من الجند، فقدرت البلد، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفنية لها برج صعدنا إلى سطحه، تعشينا وجلسنا، وخيلنا على باب البرج. فما شعرنا إلا برجل قد أشرف علينا من بين شراريف البرج، فصاح علينا ورمى نفسه إلينا، وفي يده سكينة، فانهزمنا، ونزلنا في السُّلم الأول، وهو خلفنا، ونزلنا في السلم الثاني, وهو خلفنا حتى وصلنا الباب وخرجنا, وإذا رتب لنا رجالاً على الباب، فقبضونا جميعاً وأوثقونا رباطاً، ودخلوا بنا إلى حماة إلى علي كرد، فما سلمنا من ضرب الرقبة إلا بفسحة الأجل. فحبسنا وغرَّمنا، وكان الذي فعل بنا ذلك كله رجل واحد." [3]

يدل هذا النص على مكان عليه الأمراء من تفرقة وخلاف، فتعدد الولايات فرق شمل الأمة، وجعلها شيعاً وأحزاباً، يقتّل بعضها بعضاً، حيث وصلت البلاد آنذاك إلى حال يرثى له: من التفرق والانقسام، والصراع على الحكم، حتى كان بعض الأمراء يلجؤون إلى مهادنة الفرنج؛ ليتقوا بهم ضد إخوانهم. [4] .

---

(1) صاحب رفنية، وحماة بعدها. انظر: ابن القلانس: تاريخ دمشق الكبير، ص 169، 248.

(2) صاحب حماة. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 482.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 100.

(4) انظر: علوان، عبدالله ناصح: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين (523- 589هـ)، دار السلام للتوزيع والنشر والترجمة، (د. ط)، (د.ت)، ص30.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولم يقف الأمر عند التشرذم والضعف السياسي اللذين كان العالم الإسلامي – وقت ذاك– يعاني منهما، بل وصل الأمر إلى أن يكيد الخليفة لوزيره، أو الوزير لخليفته، يقول أسامة بن منقذ في مكيدة الخليفة الظافر لوزيره ابن السلار: "... وخلع عليه الظافر[1] خلع الوزارة، ولقبه الملك العادل، وتولى الأمور، كل ذلك والظافر منحرف عنه، كاره له، مضمر له الشر، فعمل على قتله، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص, وغيرهم ممن استمالهم وأنفق فيهم، أن يهجموا داره، ويقتلوه. وكان شهر رمضان, والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وافتراق أصحاب العادل، وأنا تلك الليلة عنده.

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا، وقد بلغه الخبر من بعض العاملين عليه[2]، أحظر رجلين من غلمانه, وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون. وكانت الدار، لما أراده الله من سلامة بعضهم، لها بابان: الواحد قريب من دار العادل، والآخر بعيد.

فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب، قبل وصوله أصحابهم إلى الباب الآخر، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب. وجاءني منهم في الليل صبيان الخاص نحو عشرة رجال، كانوا أصدقاء غلماني، نخبؤهم، وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين، ومن ظُفر به منهم قُتل"[3].

ففي ظل هذه الظروف نجح الصليبيون في زرع إمارتهم ومملكتهم، وانتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق والخلف، وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى، وتم محو الإمارات

---

(1) الظافر بأمر الله الخليفة الفاطمي، قتل سنة (549 هـ). انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص204.

(2) العاملين عليه: العامل عليه: أي العين أو الجاسوس الذي ينقل أخبار الطرف الآخر. انظر: عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية، مادة (عمل).

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 31–32.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام، واحدة تلو الأخرى في طيات الموجة الصليبية[1].

ومن المواطن التي يتبدى فيها استرجاع لحظات الضعف، ما حدث به عن اغتيال الوزير عباس للخليفة الظافر، يقول: " ... وكانا يخرجان في الليل متنكرين، وهما أتراب وسنهما واحد، فدعاه إلى داره، وكانت في سوق السيوفيين، ورتب من أصحابه نفراً في جانب الدار، فلما استقر به المجلس, خرجوا عليه فقتلوه، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمس مائة، ورماه في جب في داره. وكان معه خادم له أسود لا يفارقه، يقال له: سعيد الدولة، فقتلوه"[2] .

وفي ذلك اليوم يقتل ابن الظافر، وقد كان صبياً، ويقتل – أيضاً– أولاد أخي الظافر: الأمير يوسف، والأمير جبريل، وابن أخيهم الأمير أبو البقي. [3]ويصف أسامة بن منقذ بشاعة ذلك اليوم، "وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي، لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع خلقه".[4]

في هذه الفترة كانت مصر تحت حكم العبيديين/ الفاطميين[5]، أذاقت الناس ألواناً من العذاب، وأظهرت من الفسق والفجور والمنكرات ما لا يُتخيل، فالإسماعيليون الذين كانوا أيام قدوم

---

(1) انظر :قاسم، قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 149، أيار، 1990، ص 94.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 43.

(3) لم أقف على ترجمة لهم في ما توافر لدي من مصادر ومراجع,وردوا في كتاب الاعتبار,ص43.

(4) ابن منقذ،أسامة:الاعتبار,تح: السامرائي, ص 44.

(5) طائفة تنتسب الى عبيد الله المهدي ,المطعون في نسبه,وبنو عبيد يدعون الالوهيه والربوبية ويعتقدون بعقيدة الحلول.تأسست دولتهم في تونس سنة (297هـ), وانتقلت إلى مصر سنة(362هـ), وامتدت حتى وصلت الشام والجزيرة العربية.انظر :الذهبي:العبر في خبر من غبر,تح : محمد السعيد بن بسيوني زغلول,دار الباز, مكه المكرمه, ط1405هـ, ج1, ص289 وما بعدها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحملة الصليبية، كانوا في حروب مستمرة مع السلاجقة السنة، ولم يكونوا يمانعون أبداً من التحالف مع الروم البيزنطيين تارة، ومع الصليبيين تارة أخرى في سبيل القضاء على السلاجقة، واقتطاع جزء من أرض الشام وفلسطين، لقد كان الوضع مؤسفاً حقاً، وكان الجيش المصري آنذاك– وعماده في الأساس العبيديون الإسماعيلية شوكة في حلق الأمة الإسلامية[1] .

هذا فضلاً عما كانت تشهده القاهرة يوم ذاك من فتن داخلية، ونزاعات داخل أجهزة الحكم، حيث كان الخليفة يكيد لوزرائه، والوزراء يمكرون بالخليفة شراً، فقد دبت حالة الفوضى في مصر آخر أيامها، فأصبحت الدولة تعاني من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة أن يصبح الخليفة، أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء.

فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء في من جاء بعده، وفي اختيار من يشاؤون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام[2]، فضعفت الدولة، وسادت الفوضى في البلاد. [3]

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) انظر: السرجاني، راغب: قصة الحروب الصليبية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008، ص 35، 37.

(2) لم أعثر على ترجمة لهم.ووردوا في كتاب الصلابي، علي محمد: الدولة الزنكية، دار ابن الجوزي، القاهرة,ص527.

(3) انظر: الصلابي، علي محمد: الدولة الزنكية، ص 527– 528.

ومن ذلك ما أورده في حديثه عن وقوع أسرته بيد الإفرنج، يقول: " وسَّيرت الأمان مع غلام لي، وكتاب الملك العادل[1]، وكتاب إلى الملك الصالح[2] فسَّيرهم في عُشاريّ[3] من الخاص إلى دمياط[4]، وحمل لهم كلّ ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصى بهم، وأقلعوا من دمياط في بطسة[5] من بطس الإفرنج، فلما دنوا من عكا والملك، لا رحمه الله، فيها نفذّ قوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس وأصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل، نهب كل ما فيه، .... وكان في المركب حلى أودعه النساء، وكسوات وجوهر، وسيوف وسلاح، وذهب وفضة، بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأخذ الجميع، ونفذ لهم خمس مائة دينار، وقال: توصلوا بهذه إلى بلادكم...

فهذه نكبات تزعزع الجبال، وتفني الأموال، والله سبحانه يعوض برحمته، ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نُكبتُها، سلمت فيها النفس لتوقيت الأجيال، وأجحفت بهلاك المال".[6]

---

(1) الملك العادل–هنا– نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، توفي سنة (569 هـ). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، 1996،ج 20، ص 531–538.

(2) الملك الصالح بن رزيك، كان والياً على مدينة منية ابن خصيب، وليست من الأعمال الجليلة. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج2، ص 395.

(3) العشاري: نوع من السفن، يُسار بها في النيل. انظر: عبادة، عبد الفتاح: سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداته، مطبعة الهلال، والفجالة، 1913، ص7.

(4) دمياط: ثغر من ثغور الإسلام، تقع على الزاوية بين بحر الروم والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب، وعمل ثياب الشرب الفائق– انظر: يا قوت الحموي، ج2، ص 472–475.

(5) البطسة: نوع من المراكب. انظر: النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص14.

(6) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 57–58.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد فعل الإفرنج أكثر من ذلك، فلما اشتد حصارهم لدمياط، وضاق بهم أهلها ذرعاً، طلبوا من الإفرنج الأمان، وأن يخرجوا منها بأهلهم وأموالهم، حلفوا لهم على ذلك، ففتحوا لهم الأبواب، فدخل الإفرنج المدينة، وغدروا بأهلها، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، فكأنهم يثبتون أنهم أينما أقاموا في موقع من ديار الإسلام، إلا وحلت البربرية والدموية فيه. (1)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(1) انظر: الصلابي، علي محمد: الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2008،ص 134،135.

الفصل الثاني:

اتجاهات السيرة الذاتية حسب مضمون "كتاب الاعتبار":

مدخل

- الاتجاه الأخلاقي.
- الاتجاه الديني.
- الاتجاه السياسي والاجتماعي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- اتجاهات السيرة الذاتية حسب مضمون "كتاب الاعتبار"

مدخل :

وإذا كان كارلايل(carlyle) كما تذهب الموسوعة الأمريكية، قد وضع أوجز تعريف للسيرة الذاتية في قوله: "إن السيرة حياة إنسان"[1]، فهذا يعني أنها تمتاز – بلا شك – بواقعيتها، حيث تعكس كثيراً من جوانب حياة كاتبها: النفسية والاجتماعية والفكرية والسياسية... على الرغم من أنها أحداث قد مضت، وتم استرجاعها وتذكرها حال كتابتها، سواء أكان ذلك من خلال الحفر في الذاكرة، أم من خلال قصاصات تعين على تذكر واسترجاع المواقف والأحداث التي مر بها كاتب السيرة الذاتية، فهي– إذن– تمثل محاولة "لإعادة عيش" الماضي، وبالتالي فهم الإنسان في سياقه الزمني والجغرافي[2].

كما تمثل – أيضاً– نسقاً ثقافياً له امتداده في منظومة ثقافية كبرى، تنهض على تراكمات معرفية متنوعة، تمتد عبر فترة زمنية عاشها صاحبها، طالت أم قصرت، فالعبرة بخطورة الأحداث وأهميتها، ومدى فاعليتها في تشكيل الواقع الثقافي، وإعادة صياغته بفاعلية.

ويعتمد ذلك على مكانة الفرد وعلاقته بالحياة العامة، ودوره في التأثير بها، وتقديم ذاته بصفتها مُشكّلة حقيقية لهذا الواقع بكل أبعاده وتمظهراته.

وأحسب أن أسامة بن منقذ قد قدم ذاته في "كتابه الاعتبار" بكل تجلياتها واتجاهاتها: الأخلاقية، والفلسفية، الصوفية، والسياسية، والاجتماعية، ذلك على النحو الآتي:

1– الاتجاه الأخلاقي:

---

(1) شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، ص3 .

(2) انظر :ورنوك، ميري:الذاكرة في الفلسفة والأدب، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص 181 .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يرتبط الاتجاه الأخلاقي ارتباطاً وثيقاً بالقصص والسيرة الغيرية والذاتية على حد سواء، فتأثير ذلك على أخلاق الشباب خاصة جلي بما تقدمه من نماذج للقدوة، قد تتفق أو تختلف مع الأخلاق العامة.

ولو تتبعنا القصص والسير عند المسلمين نجد أنه "لم تكن الغاية الخُلقية معدومة، في نشأة التاريخ والسير عند المسلمين، فإن القران الكريم – وهو الذي عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين قص عليهم قصص الأمم الخالية، وحين وصلهم بالأمم وجعل تاريخ الخليقة مجالاً لنظرهم– إن القرآن حيث فعل ذلك كله، كان يهدف إلى إثارة العبرة في نفوسهم، ولكن من المدهش حقاً أن هذه الغاية الخلقية كانت أضعف المظاهر حين بدأ المسلمون بكتابة السير"[1].

وعلى أية حال مهما كانت الدوافع والمسوغات لكتابة السير بنوعيها، فإن الجانب الخُلقي لا يمكن أن يغض النظر عنه فيها، فالمتلقي لا يعدم جانب العبرة والعظة أثناء الوقوف على الأحداث والمواقف العامة أو الخاصة لصاحب السيرة.

وقد تجلى هذا الجانب في "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ بصورة واضحة، سواء أكان ذلك في حديثه عن (الأنا) أم في تداخلاتها وتفاعلاتها وعلاقاتها المتشابكة مع (الآخر).

أما في بعدها الأول، فقد تبدى ذلك في كثير من صفحات الكتاب؛ لأنه كان يرى أن سيرته تعد مرشداً للأخلاق التي كان يتمتع بها، أو يتمتع بها من كان في منزلته ومكانته العالية، ولعل تسمية "كتابة الاعتبار" ما يوحي بهذا الجانب وغيره من الجوانب التي سيشير إليها الباحث إثناء حديثه عن اتجاهات السيرة الذاتية, حسب ما تضمنها كتاب أسامة بن منقذ.

---

(1) عباس، إحسان: فن السيرة، ص 12.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولعل أبرز جوانب هذا الاتجاه كما استشفها الباحث من "كتاب الاعتبار"، ما يأتي:

أ- **الشجاعة:**

وقد تبدى هذا الخلق في حياة أسامة بن منقذ منذ نعومة أظفاره، حيث رباه والده وعمه على البطولة والبسالة، فمن المواقف التي أظهرت هذا الخلق لديه ما رواه، حيث يقول: "فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر، هجمنا فيها مدينة يُبْنى[1] وقتلنا فيها نحو مائة نفس، وأخذنا منها أسارى"[2].

ويقول أيضا-: "وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي-رحمه الله-من فرسان المسلمين، يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً نريد الغارة على بيت جبريل وقتالها، فوصلناها وقاتلناهم..." [3] والكتاب مليء بالروايات والوقائع التي تشهد بفروسيته وشجاعته، كما أجمع كل من ترجم له على توافر هذا الخلق الفروسي فيه.

ب- **إغاثة الملهوف:**

وقد ورد ذلك في قصته مع الزنجي، يقول: "وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة، انهزم إلى علو داري، والرجال بالسيوف خلفه، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم، وفي الدار شجرة نبق كبيرة، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة، فثبت عليها، ثم نزل

---

(1) بُليدة قرب الرملة. انظر :ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج5، ص 428.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 40.

(3) المصدر نفسه, ص 39 – 40.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ودخل من كُم[1] مجلس قريب كانوا خلفه، فصحت عليهم وأطلقت إليهم الغلمان، فدفعوهم, ودخلت إلى ذلك الأسود.

فنزع كساء كان عليه، وقال: خذه لك. أكثر الله خيرك، ما احتاجه. وأخرجته، وسيّرت معه قوماً من غلماني فنجا"[2].

ج- الوفاء ورد الجميل:

ومما يرويه في "كردي يقاتل لجميل عليه"، يقول: "ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك أن رجلاً من الأكراد يقال له: فارس، وكان كاسمه فارساً وأي فارس!! فحضر أبي وعمي – رحمهما الله – وقعة كانت بينهما, وبين سيف الدولة خلف بن ملاعب,[3] عمل عليهم فيها، وغدر بهم، وقد حشد وجمع, وهم غير متأهبين لما جرى, وسبب ذلك أنه راسلهم وقال: نمضي إلى أسفونا[4] وفيها الإفرنج نأخذها, فسبقه أصحابنا إليها, وترجلوا وزحفوا إلى الحصن نقبوه، وهم في القتال, وابن ملاعب وصل، فأخذ خيل من كان ترجل من أصحابنا، ووقع القتال بينهم، بعدما كان للإفرنج، واشتد بينهم القتال، فقاتل فارس الكردي قتالاً عظيماً، وجرح عدة جراح. وما زال يقاتل ويجرح حتى أُثخن بالجراح، وانفصل القتال.

---

(1) دهليز ضيق، يؤدي إلى مجلس.انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ،هامش ص32.

(2) المصدر نفسه ، ص 32–33. وانظر: أيضاً ص 115 .

(3) خلف بن ملاعب الأشهبي الكلابي، صاحب حمص وبعدها أفامية، قتلته الباطنية الإسماعيلية.انظر: ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم, عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ): زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997، ج2، ص 152.

(4) حصن كان قرب معرة النعمان بالشام، افتتحه محمود بن صالح بن مرداس الكلابي. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 179.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فاجتاز به أبي وعمي– رحمها الله–وهو محمول بين الرجال، فوقفا عليه وهنآه بالسلامة، فقال: والله ما قاتلت أريد السلامة، لكن لكم عليّ جميل وفضل كثير، وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم، فقلت: أقاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأُقتل قدّامكم" [1].

د- إصلاح ذات البين وفك الأسرى:

وقد أورد ذلك بقوله: "كنت أتردد إلى ملك الإفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك[2]–رحمه الله– ليد كانت للوالد–رحمه الله–على بغدوين[3] الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك. فكان الإفرنج يسوقون أسراهم إليّ لأشتريهم. فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه"[4].

ه- الأنفة والنخوة:

فقد روى في ذلك "وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدّي الأمير أبي الحسن علي، رحمه الله, يقال لها: فنون. فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال، وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم. وما يُنكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة, والإصابة في الرأي"[5].

و- إغاثة المرأة ونصرتها:

وقد جاء ذلك في قصة عمه (أبي العساكر), يفك أسر مسلمة. "وكان ممن أُسر في جملة من أسر ذلك اليوم امرأة كانت من أصل جيد من العرب، وُصفت لعمي عزالدين أبي العساكر

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 118.

(2) أمير دمشق إذ ذاك، تولاها بعد أخيه شمس الملوك إسماعيل, توفي سنة(534هـ). انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، ص 296.

(3) بولدين الثاني ملك القدس.انظر: ابن منقذ, أسامة:الاعتبار,تح: السامرائي,هامش ص103.

(4) المصدر نفسه، ص 103 – 104 .

(5) المصدر نفسه, ص 145. وانظر: ما قاله عن والدته، ص 145 .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سلطان، رحمه الله، قبل ذلك, وهي في بيت أبيها، فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها، فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلوها لها، وإما أروها غيرها، فخطبها عمي وتزوجها، فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها، ثم هي خرساء، فوفّاها مهرها وردها إلى قومها.

فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم، فقال عمي: ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج, فاشتراها، رحمه الله، بخمس مئة دينار وسلمها إلى أهلها."[1]

والحقيقة أن "كتاب الاعتبار" مفعم بالجانب الأخلاقي، بما يعد قدوة حسنة في هذا الباب، حيث يهذب النفوس، ويملؤها رقة، كما يطبعها على الأنفة والعزة والكبرياء، والنخوة وإغاثة الملهوف، وإجابة الصريخ.

أما ما عكسه الكتاب من صورة الآخر في جانبه الأخلاقي، فقد أشار إليه الباحث عند الحديث عن أخلاق الإفرنج وتعاملهم مع المسلمين، وكذلك تعامل المسلمين معهم، كما نوه إلى أخلاق فرسانهم وطبائعهم، فلا حاجة إلى تكرار هذا الحديث[2].

2- الاتجاه الديني:

كان للاتجاه الديني حضور بارز في العصر الأيوبي، فقد بينت المدارس الدينية لتعليم القران الكريم, والحديث النبوي الشريف، كما أقيمت الخانقات والرَّبط لفقراء الصوفية في المدن الكبيرة، وتوفير ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء.

---

(1) ابن منقذ, أسامة:الاعتبار, تح :السامرائي، ص 93-94 .

(2) انظر: ص83-إلى ص87 من هذه الرساله.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فصلاح الدين الأيوبي – مثلاً– بنى كثيراً من الخوانق والربط والدور للفقراء من الصوفية، والمتعبدين والرحالة من أنحاء العالم الإسلامي، وقد أجرى عليهم المآكل والمشارب والملابس، والرواتب المنتظمة من المال، بل كان إذا أراد أحدهم السفر أعطي من المال ما يليق بمثله[1].

ويصور "كتاب الاعتبار" جانباً من هذا الاتجاه، بدءاً من التربية الدينية التي حظي بها أسامة ابن منقذ على يدي والديه وانتهاءً بخلاصة تجربته في الحياة، حيث كانا يعلمانه القران الكريم، وعلوم الحديث الشريف، وكان قدوته في ذلك أبوه – رحمه الله – يقول أسامة: "... يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل: تفرقوا كل من عليه قراءة يقرأها، ونحن أولاده حفّاظ القران.

فنتفرق نقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد، بأمر من يستدعينا، فيسألنا كم قرأ كل واحد منا؟ فإذا أخبرناه, يقول: أنا قرأت مائة آية أو نحوها. وكان – رحمه الله–يقرأ القران كما أنزل".[2]

كما كان والده – أيضا – ناسخاً للقرآن الكريم، فنسخه ثلاثاً وأربعين (43) مرة، فضلاً عما كتبه من قراءاته، وغريبة، وناسخه ومنسوخه، وسبب نزوله[3].

وقد وصفه ابن الجوزي بقوله: "كان مرشداً عالماً بفنون العلوم والآداب، رجلاً صالحاً، كثير التلاوة للقران الكريم، حافظاً له، كثير الصوم ... كثير البأس والنجدة في الحروب، وكان له يد طائلة في علوم العربية والكتابة والشعر، وله خط حسن، كتب بخطه سبعين مصحفاً"[4].

---

(1) انظر:سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص 71–72.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 208.
(3) المصدر نفسه, ص 75، 76.
(4) سبط ابن الجوزي،أبو المظفر, يوسف بن يوسف بن قزأوغلي (ت 645هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، منشورات حيدر آباد، الهند،(د.ط),(د.ت), ج8، ص 162.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذا يوحي بما كان عليه بعض فئات الناس من الزهد في الدنيا وإيثار الباقيات الصالحات عند الله تعالى، وما كان يحرص عليه الآباء من التربية الصالحة لأبنائهم، ولعل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة يوم ذاك ما شجعت على الميل إلى الزهد والتقشف والتخلق بخلق التصوف الحقيقي البعيد عن الغلو والمغالاة في الدين.[1]

ويشير أسامة بن منقذ إلى ملمح آخر يقدم فيه خلاصة رأيه في العلاقة الجدلية بين الموت والحياة، ولعل ذلك يجسد قمة الخلق الصوفي الإسلامي، لا المذهبي الذي عرف لدى غلاة المتصوفة؛ بأن الموت هو "الحجاب عن أنوار المكاشفات والتجلي"[2].

يقول أسامة بن منقذ: "فلا يظن ظان أن الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحَّمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام ...وأنا من الأجل في حصين حصين إلى أن بلغت تمام التسعين، فرأيت من الصحة والبقاء...فأعقبت النجاة من تلك الأهوال، ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك في كنه الجيش أسهل من تكاليف العيش، استرجعت مني الأيام بطول الحياة، سائر محبوب اللذات، وشاب كدر النكد، صفو العيش الرَغد"[3].

وهذا يعني أن الموت عنده غياب الجسد عن الحياة، وانتقال الروح إلى بارئها، لا يقدمه خطر، ولا يؤخره حذر، ولا يعجله كدر الحياة ونكدها، ولا ينسئ فيه رغد أو نعيم.

([1]) ابو شارب,حازم فارس علي: فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار أنموذجاً,رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الشرق الأوسط, عمان, 2011,ص117.

(2) صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ج2، ص440.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 182.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويسرد أسامة بن منقذ في كتابه بعضاً من أخبار الزهاد والمتصوفة، وما وقف عليه من مشاهداتهم, معتقداً ببعض كراماتهم. وقد ذكر الباحث نتفاً منها إثناء حديثه عن مضمون الكتاب، فلا داعي لتكرار ذلك مرة أخرى[1].

3- الاتجاه السياسي والاجتماعي:

يعد أسامة بن منقذ أحد فرسان الإسلام وأبطاله في العصر الأيوبي، عرك الدهر، وعركه الدهر، فاجتنى منه ثمار التجربة والاختبار، قال عنه العماد الأصبهاني الكاتب: "وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الإسلام..." [2].

وتنقل بين الشام ومصر وفلسطين والموصل، وشارك في جلِّ أحداثها السياسية، كما تولى كثيراً من الأعمال، وقام بغير مهمة للأمراء والقادة الكبار، كان آخرها مع صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

وقد صور لنا في كتابه "الاعتبار" الأحوال السياسية التي شهدها في بلاد الشام، ومصر والعراق، فضلا توضيح موقفه منها بكل صراحة وشفافية، فجاء كتابه بمثابة الوثيقة التي وثقت لهذه الفترة بكل مفاصلها ومنعطفاتها المهمة.

وقد لخص حسن السياسة بقوله: "وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد",[1] فهو يرى أن عمارة البلدان لا تتم إلا بحسن إدارة قادتها لها، وأن خسارة العمران ناجمة عن سوء الإدارة وفسادها.

---

(1) وانظر للمزيد: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 184-195.
(2) الاصفهاني: الخريدة ,ج1, ص 574.
(1) ابن منقذ, اسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص 111.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن المواطن التي يتبدى فيها حسن الإدارة والسياسة, ما أشار به على صلاح الدين الأيوبي في شأن شيزر، عندما خرج إليها ملك الروم مع الإفرنج في سنة (532هـ)، فقال صلاح الدين لأسامة: "فأي شيء أعمل"، قلت: أنا أجلس فيها، فإن سلم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك، وإن أُخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا، وأنت معذور. قال: ما قال لي هذا القول أحد غيرك"[1].

وتحدث عن الوساطات التي كان يقوم بها للإصلاح بين بعض الأمراء والملوك المسلمين والإفرنج، وذلك؛ لحنكته السياسية ودبلوماسيته الفذة، أو لما يتمتع به من علاقات شخصية, ومن ذلك ما قام به بين الإفرنج، وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك، ليد كانت لوالده على ملك القدس وأنطاكية[2].

ويشير أسامه في سيرته إلى المعارك والوقعات التي حضرها بين المسلمين والإفرنج، ويصف كثيراً من تفاصيلها وحثيثاتها. كمعركة قنَّسرين[3]، وحصار شيزر[4]وثورة الجيش المصري[5]، وموقعة عسقلان[6]، وبيت جبريل[7]، وغير ذلك الكثير.

---

(1) ابن منقذ, اسامة: الاعتبار, تح: السامرائي، ص26.
(2) انظر:المصدر نفسه, ص 25 .
(3) انظر:المصدر نفسه, ص 25 .
(4) انظر:المصدر نفسه, ص 26 .
(5) انظر:المصدر نفسه, ص 29 .
(6) انظر:المصدر نفسه, ص 38 – 39 .
(7) انظر:المصدر نفسه, ص 39– 40 .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما ألمح إلى بعض الفتن والصراعات والتناحر على السلطة، وما أعقب ذلك من تخريب وقتلى؛ ومن ذلك موقعة السودان[1]، وخروج ابن السّلار[2] على الظافر[3]، وتحريش الظافر بن عباس وحمله على قتل أبيه[4].

ويشير "كتاب الاعتبار" إلى الخلافات التي كانت قائمة بين الدويلات الإسلامية في بلاد الشام، واشتغالهم بأنفسهم، مما أوقع بعض البلاد الإسلامية في يد الصليبين.

ومن ذلك ما قاله أسامة بن منقذ: "وتقدم إلى الملك العادل رحمه الله، بالتجهز للمسير للملك العادل نور الدين، رحمه الله، وقال: تأخذ مالاً, وتمضي إليه لينازل طبرية، ويشغل الفرنج عنّا، لنخرج من ها هنا نخرب غزة، وكان الإفرنج، خذلهم الله، قد شرعوا في عمارة غزة، ليحاصروا عسقلان..."[5].

ويصور الحياة السياسية في مصر، وما كانت عليه من تطاحن وفرقة وخلاف، وتعدد الولاءات والفرق، كالإسكندرانية، والفرحية والريحانية ... [6].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) انظر: ابن منقذ, اسامة:الاعتبار,تح السامرائي, ص29 – 30 .

(2) انظر: المصدر نفسه, ص 30–32. ابن السّلار، هو أبو الحسن علي بن السلار، كان والياً على الإسكندرية. انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ج3، ص 196 وما بعدها.

(3) الظافر، هو إسماعيل بن عبدالمجيد بن محمد المنتصر ابن الظاهر ابن الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي، قتل سنة (549هـ). انظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام، مج1،ص 318.

(4) انظر:ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص 42 –43 .

(5) انظر: المصدر نفسه, ص 33.

(6) انظر:المصدر نفسه, ص 29–30 .

وخلاصة الأمر، فإن "كتاب الاعتبار" يعد صورة حقيقة للأحداث السياسية المهمة التي جرت في بلاد الشام والعراق ومصر، كما عكس الدور الفاعل الذي قام به أسامة بن منقذ في رأب كثير من الصدوع التي حدثت إبان تلك الفترة.

وتتبع أهمية سيرته في هذا الجانب من أن أسامة بن منقذ كان على تماس حقيقي مع هذا الأحداث, وشاهد عيان على ما جرى فيها. "وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين مالا أحصيها، وسأورد من عجائب ما شهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره"[1].

أما في الجانب الاجتماعي، فيجلى لنا كتاب أسامة بن منقذ بعض الخلل في منظومة القيم الاجتماعية والخُلقية، حيث تفشي السلب والنهب، وقطع الطرق، والتهتك والمجون[2] .

كما صور الفئات الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك؛ وهي:

1- **الفئة الأولى**؛ وتمثل رجال الدولة، وعلى رأسها السلطان، ومن ثم الوزراء والقادة والولاة, وكبار الموظفين والتجار...
2- **الفئة الثانية**؛ وتمثلها صغار الموظفين والتجار والقضاة والصنّاع...
3- **الفئة الثالثة**؛ وتتكون من الزراع وأصحاب الحرف اليدوية.
4- **الفئة الرابعة**؛ وهي: الخدم والرقيق والجواري.

وإذا كان "كتاب الاعتبار" لم يشر مباشرة إلى هذه الفئات الاجتماعية، فإن الباحث يستطيع أن يتلمسها بسهولة، وذلك من خلال النصوص المتناثرة هنا أو هناك في كتاب أسامة بن منقذ.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص 58.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص 200 – 233.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالباب الثالث المتعلق بأخبار الصيد مليء بالإشارات التي توحي بالمستوى الطبقي الذي كانت عليه هذه الطبقة المرفهة بما كانت تمتلكه من أدوات ووسائل للصيد؛ من حيوانات وطيور جوارح[1].

ولا شك في أن عائلة بني منقذ كانت من هذه الطبقة التي تعد من الفئة الأولى من الحكام والقادة والأمراء والوزراء. ومن الإشارات التي تشير إلى الفئة الثانية، في قوله عن جارية تزوجت بإفرنجي إسكاف، فولدت ولداً حسن إسلامه, تعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والده[2].

ومما يشير إلى الفئة الثانية أيضاً، قوله أثناء حديث أمه عن أخته حيث يقول: "... إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها، رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت، ولا أراها مع الفلاحين والحلاّجين مأسورة".

أما الفئة الرابعة، وهي فئة الجواري والغلمان والعبيد، فجاء حديثه عنها من خلال بعض الإشارات؛ كقوله: "وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس، فصار إلى دار والدي، رحمه الله، عدة من الجواري من سبيهم"[3]، وقوله في غلام كان لعمه عز الدولة أبي المرهف نصر، وقد تلقى طعنة دونه كادت تصيبه, فلما حضر بين يديه الغلام، قال لغلمانه: مثل هذا يكون الغلمان ... في حق مواليهم[4].

ويتحدث عن علاقة المسلمين ومعاملاتهم مع الإفرنج، ويصف بعضهم بـ "وهم أصدقائي"[5].

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص 200 – 233.
(2) انظر: المصدر نفسه, ص 145.
(3) المصدر نفسه، ص 150.
(4) المصدر نفسه, ص 76.
(5) المصدر نفسه, ص 78.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويشير كذلك إلى عادة قطع الطرق والنهب عندما يتحدث عن فتى اسمه يونان، وقد دفع عنهم اللصوص: "...فردهم جميعاً عنّا، وما أكلوا من عندنا رغيف خبز"[1]

وفي شأن الطعام والشراب واللباس، يشير إلى ما كان لدى الأغنياء والفقراء، وما اتخذه كل منهم حسب مستواه ومكانته، ودخله. ففي لباس الفقراء, يقول: "فأقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف"[2]، وقد يكون عمامة رثة وطيلسان وثياباً رثة,[3] ويشهد لبعض الإفرنج بحسن الطعام ونظافته وجودته[4]، وما كانوا يتناولونه من النبيذ والخمر[5].

ويتحدث في سيرته عن المرأة ومكانتها في المجتمع، والعلاقة بينها وبين الرجل، وقد تجسد ذلك في حديثه عن والدته,[6] وما ذكره – أيضاً – من القصص والحكايات التي تمثل نخوتها وبأسها ومشاركتها الرجال في الحروب والقتال[7].

ويقدم لنا صورة المرأة السيئة؛ كحديثه عن المرأة الساحرة[8] أما عن علاقة المرأة والرجل لدى الإفرنج؛ فينوه إلى انعدام الغيرة والنخوة بينهما[9].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص 102.
(2) المصدر نفسه, ص 186.
(3) انظر: المصدر نفسه, ص 190 .
(4) انظر: المصدر نفسه, ص 160 .
(5) انظر: المصدر نفسه, ص 140 .
(6) انظر: المصدر نفسه, ص 145.
(7) انظر: المصدر نفسه، ص 143 .
(8) انظر: المصدر نفسه, ص 144 .
(9) انظر: المصدر نفسه, ص 154.

الفصل الثالث

أبرز القضايا التي عالجها أسامة في سيرته الذاتية في "كتاب الاعتبار":

مدخل

1- الموت والحياة.

2- الأنا والآخر.

3- الذاتي والموضوعي.

4- الذاكرة بين الحقيقي والمتخيل.

5- البوح والاعتراف.

6- الخضوع والتمرد.

7- النماذج الإنسانية في "كتاب الاعتبار".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مدخل:

طرح أسامة بن منقذ في "كتابه الاعتبار" كثيراً من القضايا الفكرية والموضوعية، بطريقة غير مباشرة، ثم ترك للمتلقي مساحة رحبة من التأويل والاستنتاج، وكشف النقاب عن المعاني المختفية وراء بنية النص اللغوية، بصفتها موضوع التجربة التي يوفرها المنتج للقارئ فـ "النص الأدبي يقدم رؤية منظوريه للعالم (أي رؤية المؤلف).

وهو أيضاً في حد ذاته مُكوّن من منظورات متنوعة ترسم رؤية المؤلف، وتسهل بلوغ ذلك الشيء الذي ينبغي على القارئ تصوره".[1]

وتنوعت هذه الرؤى بين: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وامتدت على مساحة مكانية وزمانية رحبة، واعتمدت على الخبرة والتجربة والمعاينة، استدعاها من الذاكرة، وإن شاخت واعتراها النسيان، إلا أنها كانت على درجة عالية من النضج والموضوعية والصدق، صدق مع الذات من جهة، وصدق مع الآخر من جهة أخرى.

وتأسيساً على ما سبق، سيعالج الباحث في هذا الفصل مجموعة من القضايا التي اجتهد في الوقوف عليها في "كتاب الاعتبار"، وهي:

---

(1) إيزر، فولفغانغ: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، تر: حميد لحمداني، والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، (د.ط)، (د.ت)، ص31.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

1- الموت والحياة:

تكشف المواقف المتناثرة في "كتاب الاعتبار" عن رؤية أسامة بن منقذ العميقة، ونظرته البعيدة لثنائية الموت والحياة، وهي بلا شك ثمرة من ثمار الإيمان بالله تعالى أولاً، ومن ثم عقيدته الجازمة بالقضاء والقدر ثانياً.

وقد انعكس ذلك في قلبه وعقله، من خلال المواقف التي حضرها، والحالات التي شاهدها، فالموت وإن كان غياباً حقيقياً للجسد، فهو خلود للروح، والموت– أيضاً – يتضمن في ثناياه الحياة، وإن كان نقيضاً لها، فبه تحقيق النصر، وطرد الأعداء واستعادة الأرض...

ولا شك في أن أسامة بن منقذ قد شاهد كثيراً من موت الأهل والأصدقاء، والفرسان في المواجهة مع الفرنج، فخرج بعِبْرة اختزلها، بقوله: "فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام والجروح، وأنا من الأجل في حصن حصين، إلى أن بلغت تمام التسعين... وكان الهلاك في كنه الجيش، أسهل من تكاليف العيش"[1].

ويمكن للمتلقي أن يخلص من هذا النص بمجموعة من الأفكار والرؤى، منها:

أولاً: ليس ثمة علاقة، أو رابط– بالضرورة– بين ركوب الأخطار، والتعرض للأهوال، وبين الموت.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 182.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانياً: يتمنى الفارس، والمقدام أن يحظى بالشهادة في ساحة المعركة، بين طعن الرماح، وخفق البنود، ولكن القدر قد يؤجله إلى أجل مسمى، فيموت على فراشه:".... وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام والجروح – وأنا من الأجل في حصن حصين– إلى أن بلغت تمام التسعين"

ثالثاً: يستحضر أسامة بن منقذ في عبارته السالفة، مقولة خالد بن الوليد– رضي الله عنه–، إذ قال: "لقد حضرت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء" !!،" ولقد طلبت القتل في مظانه، فلم يُقدر لي إلا أن أموت على فراشي"[1].

رابعاً: لم يتأمل أسامة بن منقذ الموت تأملاً فلسفياً، بمعنى أنه "عدم الشعور بالانسجام مع العالم"، أو مجرد "الارتقاء إلى العلو" كما تذهب الفلسفة الغربية[2]، أو أنه تخلص من الجسد الذي يعوقه عن الاتحاد الأبدي بالله، فأسعد الأوقات وأمتعها لحظة مفارقة الروح للجسد، كما يذهب الفلاسفة المسلمون[3].

ولكنه رأى فيه المشيئة الإلهية التي ينفذها الله في خلقه، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير[4].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) عرجون، صادق إبراهيم: خالد بن الوليد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1981، ص354.

(2) شوردن، جاك: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب، الكويت، ع 76، 1984، ص 254، 260.

(3) انظر: ملحس، ثريا عبد الفتاح: القيمة الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط)،(د.ت)،ص163.

(4) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص56.

ويكرر الفكرة ذاتها، عند توصيفه لأحد فرسان لفرنجة : "... وكان شاباً حسن الصورة، حسن اللباس، إلا أن فيه آثار جراح كثيرة، وفي وجهه ضربة سيف قد قدَّت من مفرقة إلى حكمته[1]، فسألت عنه، فقالوا: هذا الذي حمل على عسكر إسباسلار مودود[2]، وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع إلى أصحابه، فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الأجل الإحجام، ولا يقدمه الإقدام"[3].

مثل هذه العبارة:" فلا يظن ظان أن الموت ..."، أو " لا يؤخر الأجل الإحجام ..." التي كان يقفل بها المشاهد والأحداث التي عاينها، أو شاهدها، ما هي إلا خلاصة تربيته الإيمانية القرآنية، فليس بخافٍ التعالق مع كثير من الآيات القرآنية التي أوضحت فلسفة الموت والحياة في الإسلام، منها – على سبيل المثال – قوله تعالى: "فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ"[4].

والموت فراغ الأجل، يقول: "ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين "محمود بن قراجا"[5] في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه، وعمي قد منعه، وقال: والله ما تحل جرحك إلا في دارك، قال: أنا في دار والدي – يعني الوالد – رحمه الله، قال: إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك

---

(1) الحَكَمة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه، ومن الإنسان مقدم وجهه ورأسه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (حكم).

(2) هو شرف الدين مودود، حاكم الموصل. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج10، ص485-488.

(3) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص92.

(4) سورة النحل، أية 61.

(5) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة , نوفي سنة 517 هـ, من سهم مسموم اصابه في حصار أفامية. انظر: ابن الاثير: الكامل في التاريخ, ج10 , ص 618.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بحكمك. فركب المغرب وسار إلى حماة، فأقام الغد وبعد الغد، ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات، وما كان به إلا فراغ الأجل"[1].

لعل تأمل أسامة بن منقذ لجدلية الحياة والموت – على بساطته – يتفق مع الفلسفة الإسلامية في تفسير هذه الظاهرة التي يقف العقل البشري عاجزاً عن تفسيرها، فتريحه من الانغماس في تأملات وسفسطات لا جدوى من ورائها، فينصرف –عندئذ– إلى عمارة دنياه وآخرته.

ولذلك فقد أقبل أسامة بن منقذ على الدنيا وأحبها، وعاش تفاصيلها بكل خيراتها، وقضاها في سبيل الله مجاهداً، فجمع بين التقوى والإيمان، وتحمل تكاليف الحياة وأعبائها، فلم يزهد بالدنيا، ولم تفتنه بخضرتها ونضرتها، فعاشها كما عاش لآخرته في الآن.

2- الأنا والآخر:

يعد "كتاب الاعتبار" من الكتب المهمة في تراثنا الأدبي التي كشفت عن جدلية العلاقة بين الأنا والآخر، وأعني بالآخر (الفرنج) بغض النظر عن جنسياتهم وأعراقهم، إذ طرح مجموعة من الإشكاليات الثقافية والفكرية والسياسية، تتمحور حول طبيعة الصراع الذي ساد آنذاك، يؤطره الوعي بالآخر، والموضوعية والصدق في الطرح.

ولعل هذا ما دعا الآخر/ الغرب في العصر الحديث يعنى ويهتم بـ"كتاب الاعتبار" دراسة وترجمة، ضمن شرطه التاريخي الذي أنتجه، إضافة إلى أهميته التي تنبع من خلال الامتداد الزماني والمكاني الواسع على مختلف جبهات الصراع التي توقف عندها، أو أشار إليها.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص70–71.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاقة الذات/ الأنا بالآخر، تحمل إشكالية عميقة، بوصفه اختلافاً ثقافياً ودينياً وعلمياً، ويشكل أفقاً للذات، وجزءاً من نظرتنا إليه، باعتباره شريكاً مسالماً، أو كياناً غازياً، أو محتلاً متغطرساً، أو مفاوضاً مهاوناً، فهو دائم الحضور في المجال العام للوعي بالذات، كما يشكل موضوع إغراء، ومنبعاً للحيطة والحذر معاً[1].

وسنحاول– في هذه العجالة– أن نقف على صورة الآخر، كما رسمها "كتاب الاعتبار"، وذلك من خلال المشاهد: الاجتماعية والدينية والثقافية التي عرضها أسامة بن منقذ في كتابه.

- **المشهد الاجتماعي:**

رصد هذا المشهد في أبعاده المختلفة؛ العادات والتقاليد والأعراف التي اتسم بها الآخر/ الفرنج، وهو يمثل منظومة الفكر السلوكي التي تشي– إلى حد بعيد – بضحالة هذه المنظومة السلوكية وترديها في كثير من جوانبها. فمن صور الحياة الاجتماعية التي لفتت انتباه أسامة بن منقذ، وألقى عليها مزيداً من الضوء في كتابه؛ منها:

- **جفاء الأخلاق:**

قد عزا ذلك إلى قرب عهدهم ببلادهم، يقول: "فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين"[2] فأخلاق المرء تهذب بالعادة والتدريب، وما يشاهد عياناً[3].

---

(1) انظر: أفاية، نور الدين: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص50.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 153.

(3) انظر: مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421 هـ): تهذيب الأخلاق، تح: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، 2011، ص19.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبما أن الإنسان مدني بالطبع، فهو يحتاج للاجتماع والتعاون، فلا تكتمل حياته إلا بالمجتمع[1] وقد جعل الجاحظ الأخلاق الحسنة وفعل الخير والتودد والرقة وسلامة النية والحلم والحياء ... فضائل مكسبه كاكتساب العلوم والآداب عن طريق المعاشرة والتدريب والتعود[2].

ومما يرويه في هذا الجانب، قوله: "فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أنني كنت زرت البيت المقدس، دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنسية، فكنت إذا دخلت الأقصى وفيه الداويّة[3] وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه.

فدخلته يوماً، فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج وردّ وجهي إلى الشرق، وقال كذا صلِّ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق، وقال: كذ صل، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق"[4].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) انظر: مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب:مقدمة كتاب تهذيب الأخلاق، ص12.

(2) انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 256 هـ): تهذيب الأخلاق، قرأه وعلق عليه: إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث لنشر والتحقيق والتوزيع، طنطا، 1989، ص19.

(3) قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين، ولهم أموال وسلاح، ولا طاعة عليهم لأحد. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، 418.

(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي،ص 153- 154.

- **عدم الغِيرة والنخوة:**

فـ "ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة" [1]، ولعل كثرة المعاصي والذنوب والآثام، هي عاقبه قلة الغيرة لديهم، فالغيرة تحمي القلب، فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وقلة الغيرة تميت القلب، فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفع، البتة[2].

ويروي حوادث كثيرة تشهد على قلة غيرتهم، وفساد طباعهم، منها قوله: "ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس في دار رجل يقال له: مُعزّ داره عمارة المسلمين، لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه، ويقول: فلان التاجر قد فتح بتيّة [3] من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً، فهو في موضع كذا وكذا، وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة.

فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش، فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟ قال: كنت تعبان دخلت أستريح، قال: فكيف دخلت إلى فراشي؟ قال: وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه، قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها، كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ قال: وحقّ ديني إن عُدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت. فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته"[4] .

وكفى بقول أسامة بن منقذ: " ... فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته" تعليقاً على هذا المشهد.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 154.

(2) انظر: ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ): الداء والدواء، تح: محمد أحمد الاصلاحي، دار الفوائد للنشر والتوزيع، (د.م)، (د. ط)، (د. ت)، ص163-168.

(3) البتية: البرميل العظيم من الخشب. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، حاشية ص 155.

(4) المصدر نفسه، ص 154-155.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويأخذ أسامة بن منقذ العجب من اجتماع الشجاعة العظيمة مع انعدام الغيرة والنخوة والكرامة، يقول: "فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة"[1].

- موائد الطعام والشراب:

إنهم يأكلون لحم الخنزير، والنادر منهم من لا يأكله، يقول: "فمن ذلك أنني نفذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصّفي[2]، وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية، فقال لصاحبي يوماً: قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجيء معي حتى نرى زيهم، قال: فمضيت معه، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج.

وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية مُلك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيّب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير، فأكلت وأنا متحرز وانصرفنا"[3].

ويعزو أسامة بن منقذ هذه العادات والسلوك لطول معاشرة المسلمين، ولكن هذا الصنف من الناس شاذ لا يقاس عليه[4].

أما شربهم الخمر، فقد تبدى واضحاً في القصة السابقة التي تحدثت عن قلة غيرتهم.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص155-156.

(2) هو: برهان الدين البلخي، ولاه نور الدين زنكي التدريس بمدرسة الحلاويين في حلب. انظر: ابن شداد,محمد بن علي بن إبراهيم(ت684هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،تح:يحيى زكريا عبارة,منشورات وزارة الثقافة السورية,دمشق,1991, ج1، ص200.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص159- 160.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص 159.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **السحر والشعوذة:**

ويروي لنا أسامة بن منقذ- في هذا الجانب- خبر أمتهم بريكة، يقول: "... فوضعت سيفي ودرقتي [1] والحربة التي معي، ومشيت قليلاً وأنا أسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً، فلما قربت منه وثبت عليه، وفي يدي دشني [الحربة] فقبصته، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها، وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول. قلت: ويحك أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا؟! قالت: أسحر، قلت: قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع"[2].

واستنكار أسامة بن منقذ لهذا الفعل، لأنه من بقايا المعتقدات القديمة، وارتباطه بالشر والضرر، ولعل هذا هو السر في تحريمه[3].

- **المشهد الديني:**

جاء الإفرنج إلى بلاد المسلمين، وهم يحملون مبادئهم وأفكارهم وشعائرهم الدينية، فبعد أن يؤسسوا إماراتهم في الأماكن التي يحتلونها، يطبعونها بطابعهم الديني الخاص، يقول أسامة بن منقذ مصوراً سذاجة معتقداتهم التي كانوا يربون عليها صغارهم: "ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدولة، رحمه الله، وهو في الصخرة، فقال: تريد تبصر الله صغيراً، قال نعم، فمشى بين أيدينا أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغيراً في حجرها، فقال: هذا الله صغير، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً"[4].

---

(1) الترس من جلد، ليس فيه خشب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (درق).
(2) ابن منقذ، أسامة: الإعتبار، تح: السامرائي، ص 143- 144.
(3) انظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص 561.
(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص154.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكانوا يحاولون بعض مساجد المسلمين، ولاسيما في فلسطين كنائس يؤدون فيها شعائرهم الدينية[1].

- **المشهد الثقافي:**

وبما أن الفئة الغالبة التي وفدت إلى بلادنا آنذاك، كانت من فئة الجنود والتجار، فهم لم يكونوا قادرين على خلق مستوى ثقافي وفكري رفيع، هذا فضلاً عن أن طبيعة الحياة غير المستقرة التي عاشتها تلك الفئة، لم تتح لها ممارسة النشاط الفكري والحضاري [2].

وهذا يعني أن التأثير بين الطرفين انحصر في تأثير المسلمين بالإفرنج، إذ كان تأثير الإفرنج بالمسلمين محدود المدى، بل لا يكاد يذكر، كما يلمح من "كتاب الاعتبار".

ولعل أبرز الجوانب التي تحدث عنها أسامة بن منقذ في كتابه: الطب والقضاء والحكم عند الإفرنج:

- **الطب:**

كانت أوروبا، ولاسيما الكنيسة تنظر إلى الأمراض على اعتبار أنها عقوبة إلهية جراء الذنوب والآثام التي يرتكبها الناس[3]، ولهذا قل اهتمامهم بالعلوم الطبية، وكان جهلهم الفاحش في علاج كثير من الأمراض والجراحات المختلفة جلياً.

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 153- 154.

(2) انظر: رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية مملكة بيت المقدس – 1100- 1187، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1997، ج3، ص817، عاشور، سعيد عبد الفتاح: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 200،ص261.

(3) انظر: عوض، محمد مؤنس أحمد: الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، دار الشروق، عمان، 1999، ص109.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما نجده في "كتاب الاعتبار" يقدم لنا رؤية مهمة عن الجانب الطبي لديهم، وذلك من خلال اتصال – صاحبه – الوثيق بهم، وهو ما يؤشر على تخلفهم في العلوم الطبية. وقد روى من عجيب طبهم، أن أحد أطبائهم أبصر امرأة "فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مآكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها ..."[1].

ولم يمنعه ذلك من أن يشير إلى براعة بعض أطبائهم في معالجة بعض الأمراض والجراحات، يقول: "وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك، كان ... من فرسانهم يقال له: برناد... فرمحه حصان في ساقه، فعمّلت عليه رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعاً، والجراح كلما خُتم موضع فتح موضع، وأنا أدعو بهلاكه، فجاء طبيب إفرنجي، فأنزل عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق، فختمت تلك الجراح، وبرأ وقام مثل الشيطان"[2].

- **القضاء والحكم:**

كان للصليبيين نظام قضائي يحتكمون إليه في منازعاتهم وخصوماتهم من جهة، وكذلك في خلافاتهم مع غيرهم من جهة أخرى، وقد تنوعت المحاكم لديهم، ومنها المحكمة العليا التي يرأسها أحد الفرسان[3].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص152.

(2) المصدر نفسه، ص 152- 153.

(3) انظر: الآغا، حسام حلمي يوسف: الأوضاع في فلسطين زمن الحروب الصليبية (492-690هـ/1099 – 1291م)، رسالة ماجستير غير منشورة، عزة، فلسطين، 2007، ص 247.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أشار أسامة بن منقذ إلى بعض المحاكمات التي كانوا يجرونها في ما بينهم، يقول: "... فنزلنا نابلس، فخرج ... شاب عليه ملبوس جيد مسلم... وسألت عنه فخُبرتُ أن أمه كانت مزوّجة لرجل إفرنجي، فقتلته، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وأعملوا له حكم الإفرنج: جلبوا بتيّة عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دفّ خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتيّة.

فإن كان بريئاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وإن له الذنب ما يغوص في الماء. فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص، فما قدر، فوجب عليه حكمهم، لعنهم الله، فكحلوه"[1].

ولا شك في أن مثل هذه الأحكام المتمثلة في التعذيب بالماء والكي بالنار، أحكام جائرة تتنافى والطبع السليم، علاوة على ما يشوبها من الجهل في التحقق والتثبت من الاتهامات.

ومن المحاكمات التي كانت تعقد لفض الخصومات مع غيرهم، والتي تجسد منزلة الفرسان العالية" فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم"[2]، يقول أسامة بن منقذ في ذلك: " ... وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس[3] من الشعراء [4] وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك في دمشق، فقلت للملك فلك بن فلك[5] هذا تعدى علينا وأخذ دوابنّا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها، فقال الملك: لستة سبعة من الفرسان، قوموا اعملوا

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص158- 159.

(2) المصدر نفسه، ص87.

(3) رينيه صاحب بانياس إذ ذاك. انظر: المصدر نفسه، هامش ص87.

(4) مكان لرعي الماشية، كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان، مجاورة لبانياس. انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية, ص 131.

(5) هو الملك الخامس، ملك القدس سنة 526. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، هامش ص 88.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

له حكماً, فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاورا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلس الملك، فقالوا: قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم، فأمر الملك بالغرامة، فتوسل إليّ وثقّل عليّ وسألني حتى أخذت منه أربع مئة دينار، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغيره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم"[1].

وإذا كان الخبر السابق يظهر فساد عقولهم وجهلهم في إقامة الأحكام وتنفيذها، وبيان مدى إيمانهم واعتقادهم في الخرافات والأساطير، والأخذ بالشبهات والظنون، فإن هذا الخبر فيه إنصاف لبعض أحكامهم وتوخيها العدل والإنصاف، فضلاً عن رجاحة عقول الفرسان في إقامة العدل، وعدم الخشية والخوف من مرتكبها مهما كانت منزلته.

حاول أسامة بن منقذ أن يقرأ الأخر (الإفرنج) من خلال الأنا (المسلم)، وهي قراءة تنهض على المقابلة والتضاد بين حضارتين، الأولى: ما زالت تعيش في همجيتها وتخلفها الحضاري في أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والثانية: التي ورثت كثيراً من القيم الخُلقية والفكرية الرفيعة.

وهي – كما تبدو لي – قراءة قائمة على العدل والنصفة، وعدم غمط الآخر بعض مزاياه وصفاته الإيجابية. فابن منقذ أشار في مواطن كثيرة إلى شجاعتهم وفروسيتهم، ورجاحة عقولهم في بعض الأحكام، وما مهروا به من الطب والجراحات، وما اشتهروا به من الصيد وتربية الطيور والحيوانات الصائدة.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 87– 88.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولم تكن الغاية من وصف الآخر والوقوف على معالم حياته؛ تعظيم الأنا، وتضخيم الذات والخروج عن الموضوعية، وإقصاء الآخر، ولم تكن – أيضاً– نوعاً من البحث عن الهوية، فالسؤال عن الهوية– أنذاك – لم يكن يؤرق أمثال أسامة بن منقذ، كما هو الحال اليوم، لأن الهوية العربية الإسلامية إذ ذاك ما زالت واضحة المعالم جلية الأطر، لا تخشى الانفتاح على الأخر، فما زالت هذه الحضارة تعطي أكثر مما تأخذ، وتحس بالثقة والأمان والقوة في مواجهة الخطر، ولهذا لم تكن علاقة الذات بالآخر من الناحية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ويمكن الاستغناء عنها.

وعلى أي حال تبقى ثنائية الأنا/ الأخر، الذات/ الأخر، الأنا/ الهو...الخ من المصطلحات الغريبة على لغتنا وفكرنا، وفرضت علينا ضمن ثنائيات الصراع والسلب، فمقولة الآخر، هي نتاج الفكر الأوروبي القائم على أساس الأنا مبدأ للسيطرة، والآخر موضوع لها، وهذا ما يعلل حضوره اللافت في معاجم المصطلحات الفلسفية والاجتماعية التي تستند إلى الفلسفة الأوروبية في المقام الأول[1].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(1) انظر: قداح، رؤى حسين: رحلة استسلاب الذات في رسالة ابن فضلان، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، طهران, ع 16، شتاء 2014، ص84.

3- الذاتي والموضوعي:

على الرغم من عدم توافر النسخة التي كتبها حفيد ابن منقذ (مرهف) والتي قرأها على جده سنة عشر وست مئة [1] نستطيع أن نقول إن أسامة بن منقذ لم يعن بسيرته الذاتية بروعة البيان واللغة العليا/ اللغة الفنية، والصياغة، للفظية الشائعة في عصره؛ لأن مهمته الأولى أن يروي ما حصل معه بالفعل، ولذلك فالمحور الرئيس والعام في سيرته، هو حياة الراوي، ولكن هذا المحور لم يكن منغلقاً على ذاته، بل انفتح على كثير من غيره بفعل امتداد الفضائين المكاني والزماني، وما تداخل فيهما من أحداث وأفعال وصراع وتناقض.

وما حياة الراوي إلا مفردة من مفردات عديدة تضمنتها السيرة. ومن هنا ندرت الإضاءت الخاصة التي رسمت ملامح شخصيته العاطفية، مثلاً، وعلاقته بزوجه وأبنائه.

وعلى الرغم من تداخل العنصرين الذاتي والموضوعي، وتشابكهما وتقاطعهما في كثير من المواطن في سيرة أسامة بن منقذ، فإن السمة الغالبة على هذه السيرة، هي الموضوعية، البعيدة عن الذاتية، وهي ما جعلها تتسم بالصدق؛ أعني الصدق الموضوعي لا الفني الذي يتوخى العظة والاعتبار؛ لأن صاحبها كان شاهداً على واقعه وعصره، ولعل صدقها ودقتها السبب في الثقة بين الراوي والمتلقي، بحيث أتاح له تصور الحياة من خلال وقائعها وأحداثها، ولذلك بقيت الذات/ الراوي رهينة الأحداث والوقائع.

أعتقد أن أسامة بن منقذ– في سيرته الذاتية – ابتعد عن الانفعالات العاطفية، واستثارة مكامن الشعور والإحساس لدى المتلقي، ولم ينزع نحو الفردانية وإعلاء شأن الذات، سواء أكان ذلك عبر الفخر بمنجزاتها وما حققته من أفعال، أم عبر رؤية الماضي من خلال نظرته الذاتية الخاصة،

---

(1) انظر: السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار ,ص23.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بتوليف صور جمالية قائمة على الاختيار والانتقاء، بل سرد لنا أحداثاً شاهدها، وكان طرفاً فاعلاً ومؤثراً في صنعها وتغييرها، وتفاعل بها مع الآخرين.

وإذا كانت الجوانب الذاتية قد تبدت في سيرته في غير موطن منها، بدءاً من حديثه عن سنة مولده، وشجاعته، وإيمانه وتقواه، وذكائه، وتواضعه، ومروراً بالتنويه بفضل والده وعمه في تربيته وتنشئته، وتأثيرهما في حياته الخاصة والعامة، والإشارة إلى ما كانت تتمتع به أمه من شجاعة ومروءة وغيرة، وكذا بالإشادة بإخوته وقتالهم للدين لا للدنيا، وانتهاءً بسفره وانتقاله وإلقاء عصا الترحال في ظل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

فهو – في ظني– لم يقدم لنا ترجمة ذاتية على غرار ما يعنى به أصحاب التراجم والأعلام بإثبات تاريخ الولادة، والاسم، واللقب، ... ثم بالانتهاء بتاريخ الوفاة إن كان من المتوفين، بل قدم سيرة ذاتية، كانت هذه المحطات فيها دليلاً على تطور شخصية الراوي، باعتباره الشخصية الرئيسة في هذه السيرة، فما تجلى في هذا الجانب/ الذاتي، هو بمثابة نمو وتطور هذه الذات، فلا مندوحة عنها؛ لتتبع الوقائع والأحداث التي أثرت في مسارها.

إذن فالتسجيل الاستعادي/ الاسترجاعي للذاتي في هذه السيرة، مقصود بما يحمله من دلالات وحمولات، ربما تضيء بعض المسكوت عنه، أو المقموع في الخطاب الأدبي/ السير ذاتي.

أما الحديث عن الموضوعي في هذه السيرة، فقد أشار إليه الباحث عند الحديث عن الآخر، وفي اتجاهات السيرة الذاتية حسب كتاب مضمون "كتاب الاعتبار".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

4- الذاكرة بين الحقيقي والمتخيل:

لا شك في أن أسامة بن منقذ شاخت ذاكرته، ووهنت مخيلته حينما سكن إلى نفسه، وشرع في تدوين أحداث سيرته، ولا غرو في ذلك، فقد شكا ما به من ذلك وهو ابن الثمانين[1]، فكيف به وقد ناف التسعين؟! ومع ذلك لم تتضح سيرته بالعجيب الغريب والمدهش، إذا استثنينا منها ما عقده لأخبار الصالحين وأصحاب الكرامات التي رجحنا أنها أقحمت إقحاماً على نص السيرة الأصلي.

نهل أسامة بن منقذ سيرته الذاتية من ذاكرته، وما حوته من أوصاف جاهزة لأحداث غابرة، وليس ذلك فقراً في خياله، فهو شاعر واسع الخيال، رحب المخيلة. ولعل السبب في ذلك بروز الراوي الواعظ المربي الذي يتوخى العظة والاعتبار، وتواري المبدع، ولذلك لم يوفر لأخباره التي شهدها أو رواها، أو رويت له أي طاقة تخيليه تخرجها عن مضمونها الحقيقي؛ لأنها ليست من صلب إبداعه.

وهذا لا يعني أن عنصر الخيال في سيرته انعدم، أو كاد، فالسيرة الذاتية حتى ولو اقتربت من الوثيقة التاريخية، فإنها تحتاج إلى عنصرين تنهض عليهما، هما الحقيقي والخيالي.

ولكن يبقى السؤال قائماً، ما مدى توافر المتخيل في سيرة أسامة بن منقذ الذاتية؟، هل أمعن في خياله، وأطلق له العنان؟ أم اقتصرت وظيفته على ربط الأحداث بعضها ببعض وتنسيقها والتجانس في ما بينها؟

يبدو لي أن أسامة بن منقذ لم يختلق مروياته ومشاهداته، أو الأحداث التي كان طرفاً فاعلاً فيها، أو حتى ما رويت له، بل تحرى الصدق والصراحة والموضوعية فيها.

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 179، 180.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعلى الرغم من رحابة الفضاءين المكاني والزماني وامتدادهما في سيرته، لم تلتبس عليه الأحداث، ولم تختلط لديه الأسماء والأزمان والأمكنة، وإن أسقط منها في سيرته، سواء أكان ذلك سهواً؛ لأن الذاكرة – بطبيعة الحال– عرضة للنسيان والخلط، أم سكوتاً عن بعضها عمداً وقصداً، إلا أنه صب كل ذلك في قالب فني رفيع في وقت لم تنضج فيه كتابة السيرة الفنية.

وهذا في رأيي مكمن الخيال ودوره في سيرة أسامة بن منقذ، فاللحظة التي يتم فيها التذكر والتفكر، وإبداع النص وإنتاجه، تنشط المخيلة، وينهض الخيال بجميع عملياته من: انتقاء واختيار، واستحضار، وتنسيق وترتيب للمواقف والأحداث في أدق حيثياتها، وأكثرها حساسية، فـ "استعادة الزمن المنتهي، وإعادة ترتيبه، وملء فجواته، وهذه الاستعادة، بما هي استحضار زماني تتم بواسطة التخيل"[1].

وسنقف عند مشهدين من المشاهد التي زخرت بها سيرة أسامة بن منقذ التي اعتمدت على صدق وقائع حياة صاحبها، لنرى دور الخيال في تشكيلها الفني، بحيث غدت هذه المشاهد شاخصة أمامنا.

يقول أسامة بن منقذ في أحد المشاهد التي أنقذ فيها ابن عمه من أيدي الإفرنج في إحدى المصافات: "ورأيت .... وأنا في جانب الناس في القتال، فارساً قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله، وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو، لبعد ما بيننا، فدفعت حصاني إليه خوفاً عليه من الإفرنجي الذي طعنه.

---

(1) يقطين، سعيد: السرد العربي– مفاهيم وتجليات، رؤية لنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 197.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت، قد خرجت مصارينه، والإفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد، وجذب سيفه ووقف مستقبله، فلما وصلتُه وجدته، ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد، رحمه الله، فوقفت عليه وأخليت له ركابي، وقلت: اركب، فلما ركب رددت رأس حصاني إلى المغرب، والمدينة (حلب) من شرقينا، قال لي: إلى أين تروح؟ قلت إلى هذا الذي طعن حصانك، فهو فرصة، فمد يده وقبض على عنان الحصان، وقال: ما تطاعن وعلى حصانك لا بسان، إذا أوصلتني ارجع طاعنه، فمضيت أوصلته، وعدت إلى ذلك الكلب وقد دخل في أصحابه"[1].

وإذا كان هذا النص لم ترسم أحداثه عبر منظومة البلاغة القديمة من: تشبيه، واستعارة، وكناية، ومجاز، إلا أن الكاتب قدم هذه الأحداث حافلة بالحركة والنبض والحياة، كما صور مشاعره وانفعالاته الداخلية من خلال الحياة التي منحها لهذا المشهد الذي نراه شاخصاً أمامنا بانفعالاته وأحاسيسه ومشاعره "فالخيال هو الذي ينقل الفكرة الجامدة إلى مشهد حافل بالحركة والنبض والحياة ... تصوير للمواقف في مشاهد شاخصة أمامنا، نراها رؤيا العيان"[2].

ويقول في خبر إفرنجية تجرح مسلماً: "وكان في أمراء مصر رجل يقال له ندى الصليحي في وجهه ضربتان: الواحدة في حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه، والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه، فسألته عنهما، فقال: كنت أنهض وأنا من عسقلان، وأنا راجل, فنهضت يوماً إلى طريق بيت المقدس أريد حجّاج الإفرنج، فصادفنا قوماً منهم، فلقيت رجلاً معه قنطارية وخلفه امرأته معها

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص113-114.

(2) محمد، شعبان عبد الحكيم: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010، ص 169.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كوز خشب فيه ماء، فطعني[فطعنني] الرجل هذه الطعنة الواحدة، وضربته فقتلته، فمشتْ إليّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر، فوسما وجهي"[1].

ويتبدى دور الخيال – أيضاً– في الوصف سواء أكان وصفاً للمكان أو الشخوص في النص السير ذاتي، فقد وصف أسامة بن منقذ ندى الصليحي من الخارج معللاً ومفسراً ذلك.

وهنا يبرز دور الخيال في " القدرة على تكوين صور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس"[2] وأيضاً تكمن قدرة المبدع في استحضار الماضي، وصياغته في قالب فني، وبعث الحياة في أحداثه، و"حفظ كميات من المعطيات والوصول إليها"[3].

5- البوح والاعتراف:

لا يزال كتّاب السيرة الذاتية – إلى يومنا هذا – يخشون البوح والاعتراف/ الكشف والصراحة في سيرهم الذاتية، فكم هو المقموع أو المسكوت عنه في هذه السير، ولا سيما في أدبنا العربي القديم منه والحديث على سواء.

كيف تعامل أسامة بن منقذ مع ذاته، هل تكلم عنها بصراحة، بلغت حد تجاوز التقاليد والمنظومة الاجتماعية الإسلامية العربية، هل نزع عنها كل الأقنعة؟

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 149.

(2) لحمداني، حميد: القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003، ص 11.

(3) لنبكوش، كريستيان: الذاكرة واللغة، تر: عبد الرزاق عبيد، دار الحكمة، الجزائر، 2002، ص 80.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لاشك في أن الحديث عن الذات، كما هو شأن الحديث عن الغير "يلاقي إدانة دينية وأخلاقية"[1] فالكشف عن الأنا في المجتمعات العربية الإسلامية مرهون بطبيعتها الدينية والاجتماعية، وحتى اللغوية، فضمن هذا السياق: الديني، والاجتماعي، والثقافي كتب أسامة بن منقذ سيرته الذاتية.

ولهذا بقيت الذات/ الأنا في سيرة أسامة بن منقذ في حالة غياب، ولا سيما مرحلة الطفولة، فهو لم يحدثنا عنها حديثاً وافياً، وكذلك مرحلة الشباب المراهقة بما يكتنفها من عواطف ومشاعر جياشة، فقد ضن بها علينا كذلك، فهاتان المرحلتان– على وجه الخصوص – خضعتا لمزيد من الحجب والأقنعة التي حالت دون الاعترافات التي لا يتقبلها المجتمع إلا في حدودها الضيقة فـ " اقحام التجارب الخاصة في النص احتاج إلى زمن طويل ليكتسب الكاتب الجرأة والقدرة على تجاوز قيود المجتمع وعاداته، وزج هذه التجارب في رحم النص"[2].

وإذا كانت السيرة الذاتية تجنح في بعض جوانبها إلى المساءلة والكشف والبوح، بحيث تستحيل خرقاً لكل نمطية مفروضة عليها؛ بمعنى أنها خروج "من حالة الاستضمار إلى حالة الاستظهار، من حالة الكتمان إلى حالة الإعلان"[3]، وتحمل الألم والمعاناة في سبيل ذلك.

---

(1) الشدادي، عبد السلام: ابن خلدون من منظور آخر، تر: محمد الهلالي، وبشري الفكيكي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000، ص15.

(2) كاظم، عبدالله حبيب، وكاظم، سالم جمعة: الأنثى تبوح بسيرتها: إشكالية البوح وأنماطه في كتابة السيرة الذاتية النسائية، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، مج15، ع1، 2012، ص30 .

(3) الجابري، محمد عابد: حفريات في الذاكرة، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 232.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فسيرة أسامة بن منقذ – في هذا الجانب – تكاد تكون فقيرة، إذا استثنينا بعض الإشارات التي جاء بها للحجاج على قلة الغيرة لدى الإفرنج، وما شهد به على مكانة الفارس الإفرنجي وشجاعته وانهزام المسلمين في غير لقاء من لقاءاتهم مع الإفرنج.

وإذا ما قارنا اعترافات أسامة بن منقذ في سيرته باعترافات القديس أوقسطين[1] قديماً، واعترافات جان جاك روسو[2] حديثاً، نجد أن سيرته لم تجرؤ على الإعلان عن نفسها، ولم يكن فيها عارياً في انفعالاته ومشاعره وإحساساته، بل كان حذراً في ما ينتقيه ويختاره من إشارات شتى، فهو لم يكن صريحاً وصادقاً في كشف عواطفه.

ينبغي لكاتب السيرة الذاتية أن يكشف للمتلقي ذاته بكل تناقضاتها وصراعاتها الداخلية، وما يضطرم في أعماقها، دون خشية للحجب والأقنعة، والقيود الاجتماعية والثقافية والدينية والفكرية؛ لنشارك المبدع تجربته، دون زيف أو رياء.

6- الخضوع والتمرد:

تثير ثنائية الخضوع والتمرد إشكاليات بمنتهى الحساسية، إنْ على مستوى الحياة، أو الإبداع الأدبي، فالخضوع: الذل/ الانقياد/ الاستكانة/ القهر، أما نقيضه التمرد: العصيان/ الخروج/ تجاوز الحد/ الرفض/ عدم الاعتراف بسلطان أية سلطة[3].

([1]) ولد في طاجسطا من أعمال نوميديا (بالجزائر على الحدود التونسية). كانت امة مسيحية, أما أبوه فكان وثنياً توفي سنه (440م). انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة, نقلها عن الانجليزية: فؤاد كامل وأخرون, راجعها: زكي نجيب محمود, دار القلم, بيروت,(د.ط),(د.ت),ص88.

([2]) كاتب وفيلسوف جينيفي, يعد من أهم كتاب اوربا في أواخر القرن التاسع عشر والثامن عشر, ساعدت فلسفته في تشكيل الاحداث السياسية التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية, توفي سنة (1778). انظر: https://ar.m.wikipedia.org/wiki/جان_جاك_روسو

(3) انظر: ابن منظور: لسان العرب، عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (خضع، مرد).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فعل التمرد ظاهرة إنسانية تستمد نسقها من واقع الفرد داخل المجتمع الذي ينتمي إليه؛ ويعني محاولة الفرد أن يتحرر ويتخلص من عبودية الآخر، سواء أكان فرداً أم جماعة، والتمرد هو الإنسان الذي نظر إلى الواقع، فاكتشف زيف علاقاته، فقام يصارع الواقع، بقوله: "لا" في عالم يقول: "نعم"، ويرفض المتمرد القوانين الجائرة، ويكره العبودية والاستبداد، ويطالب بالعدالة والمساواة، ويصارع العقبات، فإذا ما يئس انتهى إلى العزلة والاغتراب والصمت[1].

أما فعل الخضوع، فهو مناقض لطبيعة الإنسان، ومخالف لفطرته؛ لأنه مفطور على الحرية، والأنفة والعزة منذ ولادته، ولكن قد تقهره بعض العوارض، تصادر حريته، وتقسره على الانقياد.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ما مدى توافر هذه الثنائية الضدية في سيرة أسامة بن منقذ الذاتية؟

تبدت هذه الظاهرة في غير موقف من سيرة أسامة بن منقذ، سواء أكان ذلك من خلال المواقف العامة، أم الخاصة، منها:

ما رواه عن والده، يقول: "وكان، رحمه الله، له اليد الطولى في النجوم، مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن، وكان يحرّضني على معرفة علم النجوم فأبى وأمتنع، فيقول: فاعرف أسماء النجوم: ما يطلع منها ويغرب، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها"[2].

لعل أسامة بن منقذ كان يدرك أن التنجيم ضرب من الوهم، لا يدفع قدراً، ولا ينجو من حذر، وأنه يتناقض مع التقوى والإيمان، وهذا ما يلمح من قوله: "وكان، رحمه الله، ... فأبى وامتنع"، أما

---

(1) كامو، البير: الإنسان المتمرد، تر: نهاد رضا، منشورات دار العودة، بيروت، 1983، ص 19.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 79.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاقتصار على معرفة ما يبدو وما يعزب منها، واستظهار أسمائها، فلا ضير منه، بل يفيد الساري في معرفة الاتجاهات والأوقات، كما قال تعالى: "وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ"[1].

ونلمح في هذا النص استنكاراً لما كان عليه والده من لهج بمعرفة النجوم، وتمرداً على رغبة الوالد في استجابة دعواه، وكأني به يرى ذلك معصية لخالق النجوم، ولا سيما إذا أمعن المرء في ذلك، وحرص على قراءة الطالع من خلالها.

ومن ذلك ما رواه – أيضاً– في خبر عباس وغلامه، إذ يقول: "وكان (عباس) كثير اللهج بالنجوم، وهو معوّل على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة [549هـ]، فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنتر الكبير، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها، فقال له: يا مولاي، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى الشام؟ خذ خزائنك وأهلك وغلمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الإسكندرية، نحشد من هناك ونجمع، ونرجع إلى ابن رزِّيك ومن معه، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك، وإن عجزنا عنه عدنا إلى الإسكندرية إلى بلد نحتمي فيه، ويمتنع على عدونا، فنهره وخطأ رأيه، وكان الصواب معه"[2].

فالاعتماد على التنجيم والطالع في مهام الأمور والجلل منها، لا يرهن بمظان الشك والظنون؛ ولذلك لم يطعه غلامه في ذلك وصاح بالجند "روحوا إلى بيوتكم"[3].

وكان يقسو باللائمة – أحياناً– فلا تأخذه في الحق لومه لائم، حتى مع كبار القوم وعليه الناس، ولكن دون أن يسيء، ويتجاوز حدود الأدب في الخطاب، يقول مخاطباً العباس في شأن

---

(1) سورة النحل، آية16.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 47.
(3) المصدر نفسه، ص47.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولده: " ... فقلت لعباس: يا مولاي الأفضل، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمله، ما أتبرأ من خطأه [خطئة] ولا صوابه، أي شيء ذنبه؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط في شيء من مالك، ولا قدح في دولتك، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك اللائمة، فأمسك عنه والده، ورعى لي ابنه ذلك"[1].

7- النماذج الإنسانية في " كتاب الاعتبار":

مدخل:

حفل "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ بالعديد من النماذج الإنسانية، وتعد هذه النماذج على اختلافها وتنوعها بنيته الفنية.

وقد كشف أسامة بن منقذ عن دورها الفاعل في بنية العمل السردي، وخصوصيتها وصفاتها في هذا العمل، وارتباطها القوي في واقعها المعيش، كما حاول تصوير أدق تفاصيلها، وعكس آرامها وأحلامها.

وأرخ الواقع آنذاك من خلال الأحداث التي صنعتها، والقضايا التي كافحوا من أجلها، إذ كانت تشغل حينئذ مكانة رفيعة على مختلف الصعد.

ولم يكشف بذلك، بل تناول بعض الفئات المهمشة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وما تعرضوا له من آلام ومصاعب.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي, ص 42.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولم يثنه عن الإشارة إلى هذه النماذج أياً كانت، اتفاق في الرأي، أو اختلاف في التوجه، أو إيمان بالطرح، أو تباين في وجهات النظر بينه وبينها، بل قدمها كما هي، بعيداً عن الاعتقاد بما هو صواب، أم خطأ، فتحركت في كتابه على سجيتها بكل معتقداتها وأفكارها، ومبادئها، ووجهات نظرها.

ولعل ابرز النماذج الإنسانية التي يقع عليها المتلقي في "كتاب الاعتبار"

أولاً: النموذج السياسي/ الفارس.

فأول صورة تطالعنا في كتابه صورة بني منقذ، فكلهم فارس شجاع، وسياسي فذ، وقد أشار أسامة بن منقذ إلى كثير من بطولاتهم، وحسن إدارتهم لدفة المعارك والحروب التي خاضوها مع الإفرنج في مناطق عدة من بلاد الشام.

ومن ذلك، ما حدثنا به عن والده، رحمه الله: "وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحرب، وفي بدنه جراح هائله"[1].

ويقول في حديثه عن عمه/ سلطان أبي العساكر عزالدين، وأبيه: "وكانا، رحمها الله، من أشجع تومهما"[2].

ويتحدث عن أخيه عز الدولة ابو الحسن علي، فيقول: ".... وكان، رحمه الله، من فرسان المسلمين، يقاتل للدين لا للدنيا"[3].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 74.
(2) المصدر نفسه، ص 78.
(3) المصدر نفسه، ص 39– 40.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول في شجاعة ابن عمه، ناصر الدولة كامل بن مقلد: "ورأيت في ذلك اليوم، وأنا في جانب الناس في القتال... فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر... رحمه الله"[1].

وثمة صور أخرى للقادة من غير آل منقذ، الذين اشتهروا في شجاعتهم وفروسيتهم في القتال ضد الإفرنج، كطلائع بن رزّيك أبو الفارات[2]، ونور الدين محمود بن زنكي[3]، ويوسف بن ايوب صلاح الدين[4]، وجمعه النميري[5] وغيرهم.

وفي المقابل، نجد أسامة بن منقذ يقدم صورة دقيقة وواضحة لصورة الفارس الإفرنجي، ويرسم شخصيته وسلوكه وطبائعه وشجاعته في المعارك، بل يصور ممارسته غير الإنسانية ضد المسلمين، كما استرعى انتباهه الفارس والراجل، والنساء المقاتلات، ووصف شجاعتهم وجبنهم، وصبرهم على تحمل المشاق، وما كان لهم/ الفرسان من الأهمية، ما ليس لغيرهم من عناصر جيوش الفرنج الأخرى، كالرجالة والفَعَلة والصناع.

وقد وصف – أيضاً – صفاتهم الجسدية، وما حضوا به من مكانة وأهمية، واحترام عظيم في مجتمعهم[6].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي،، ص 113.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص 45، 46، 47، 50، 56، 57.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص 33، 37، 38، 46، 56، 57، 172، 200، 205، 206.
(4) انظر: المصدر نفسه، ص 22، 168.
(5) انظر: المصدر نفسه، ص 58، 59، 70، 80، 81، 82، 84، 85، 86، 87، 90.
(6) انظر: الهدروسي، سالم: صورة الفرنج العسكرية في النثر الفني العربي زمن الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، مجلة أبحاث اليرموك "سلسلة الآداب واللغويات"، مج 11، ع 1، 1993، ص43، 63، 65، 66، 67.

يقول في شأن القارس عند الإفرنج: "والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة، ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم"[1].

وينقل لنا بعض صفات الجسدية من وجهة نظرهم، فيقول: "إذا كان الفارس دقيقا طويلاً، كان أعجب لهم"[2].

ثانياً: النموذج الاجتماعي /المرأة

حفل "كتاب الاعتبار" بالمرأة، فثمة نساء كثر ورد ذكرهن فيه، يجسدن المرأة النموذج التي تستحق الاحترام والتقدير، فقد رآهن، أو سمع عنهن، وعرف قصصهن عن كثب، خلال حياته التي عمّر فيها.

فهناك المرأة الشجاعة القوية, وذات البأس التي أُعجب بإقدامها وقتالها، يقول في وصف عجوز من جواري جده الأمير أبي الحسن علي: "وتلثمت في ذلك اليوم (سنة ثمان وثمانين وأربع مئة) عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي، رحمه الله، يقال لها فنون، فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم. وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي"[3].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص87.
(2) المصدر نفسه، ص84.
(3) المصدر نفسه، ص 145.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولم يقتصر هذا الإعجاب والتقدير على المرأة المسلمة، بل أشار إلى ما كانت تتمتع به المرأة الإفرنجية من شجاعة وجرأة[1].

والمرأة الحريصة على الشرف والعرض، فترى الموت أهون من هتكه، وتلويثه، يقول في خبر أمه وأخته: " ... وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف ... قلت: يا أمي أين سلاحي؟ قالت: يا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا وما ظننتك سالماً، قلت: فأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ قالت: يا بني أجلستها على الروشن، وجلست براً منها، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي، فأراها قد ماتت، ولا أراها مع الفلاحين والحلاّجين مأسورة، فشكرتها على ذلك وشكرت الأخت وجزتها خيراً، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال"[2].

والمرأة الناصحة الحكيمة ذات الرأي السديد الناجم عن الخبرة والتجربة في الحياة، وهذا ما يتبدى في خبر جدته، يقول: "ولقد خرجت يوماً من الأيام مع الوالد، رحمه الله، إلى الصيد، وكان مشغوفاً بالصيد، ... وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء، وإذا جدتي لأبي، رحمهما الله، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة – وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة– فما شككت أنها قد جاءت تهنئني بالسلامة، وتعرفني مسرتها بما فعلت، فلقيتها وقبلت يدها, فقالت لي بغيظ وغضب يا بني أيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً قلت: يا ستي، إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرّب إلى قلب عمي،

---

(1) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 149.
(2) المصدر نفسه، ص 145.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قالت: لا، والله، ما يقربك هذا منه، وإنه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً، فعلمت أنها، رحمها الله، نصحتني في قولها وصدقتني، ولعمري أنهن أمهات الرجال"[1].

والمرأة مثال التقوى والصلاح والعبادة والورع، يقول – أيضاً في وصف شأن جدته التي سلف الحديث عنها: " ولقد كانت هذه العجوز، رحمها الله، من صالحي المسلمين من الدين والدقة في الصوم والصلاة على أجمل طريقة، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي، وكان، رحمه الله، من أحسن من يتلو كتاب الله تعالى، ووالدته تصلي بصلاته، فأشفق عليها، فقال: يا أمي، لو جلستِ صليت من قعود، قالت يا بني، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة؟ لا والله، ما أجلس، وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة، وهي قد شارفت المائة سنة، رحمهما الله."[2].

والمرأة عند أسامة بن منقذ من ترى نفسها على ثغرة من ثغر المسلمين، لا تؤتى من قبلها، فهي تشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقها، كان رجل يقال له: علي له من النظر ما لزرقاء اليمامة، ينظر القوافل والجيوش القادمة من بعد، انتقل إلى خدمة أحد قادة الإفرنج، فعظم أذاه المسلمين، وبالغ في سفك دمائهم، وله امرأة معه بكفر طاب تنكر عليه فعله وتنهاه، ولا ينتهي، فأحضرت أخاها من بعض الضياع، وأخفته في البيت إلى الليل.

واجتمعت هي وهو على زوجها فقتلاه وأخذا ماله، وأصبحت بشيزر، وقالت: غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا، فأراحت الناس منه، وكانت عندهم في الكرامة والاحترام[3].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 146– 147.
(2) المصدر نفسه، ص 147.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص 147– 148.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذه بعض من النماذج الأنثوية التي حفل بها "كتاب الاعتبار"، فهي تمثل الصورة المشرفة للمرأة، رسمها أسامة بن منقذ في كتابه، دون مبالغة وزيف، ويحدث هذا في فترة من أصعب فترات المسلمين، حيث أخذت المرأة دورها الحقيقي: تقاتل وترتدي السلاح، وتحمل به على الأعداء، وتقدم النصح والإرشاد في حينه، وتثير الحمية، وتستصرخ مكامن النخوة والرجولة في نفوس المقاتلين، وتدافع عن عرضها وشرفها وترى الموت دونه شرفاً وكرامة وعزة.

ولا شك في أنها تحظى لدى أسامة بن منقذ بكل احترام وتقدير، فلم أجد في "كتاب الاعتبار" أية إشارة توحي باحتقار المرأة وازدرائها، والتقليل من شأنها، أو التعالي عليها، أو غمطها حقها, وما يلفت الأنظار في كتابه، غياب المرأة: الزوجة، والحبيبة، والبنت.

ثالثاً: النموذج الثقافي/ الفقيه/ اللغوي/ الزاهد/ الطبيب

وفيه يقدم السارد بعض النماذج للعالم والفقيه، واللغوي، والطبيب، وبعد ذلك من قبيل الرصد – غير المباشر – للحركة العلمية والثقافية والفكرية السائدة آنذاك نجد في "كتاب الاعتبار" بعض الاشارات إلى أسماء بعض الأعلام العلماء كالفقيه الفندلاوي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي.

يقول عنهما أسامة بن منقذ: "ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة، رضوان الله عليهم... في مكان واحد"[1]. والفقيه برهان الدين البلخي[2].

---

(1) ابن منقذ، اسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 117.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص 159.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والشيخ الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطر مير (ت 490هـ) [1] الذي حفظ عليه (والد أسامة بن منقذ) القرآن الكريم، وقرأ عليه – أيضاً العربية[2].

والشيخ الطليطلي النحوي (ت 458 هـ) [3] ، وكان في النحو سيبويه زمانه، قرأ عليه اسامة ابن منقذ النحوي وكان يتولى دار العلم بطرابلس[4].

وفي مجال الطب يحدثنا عن الطبيب يوحنا بن بطلان[5] المشهور بالمعرفة والتقدم في صناعة الطب، وكان له إصابات عجيبة في الطب، وقد لازم جد أسامة بن منقذ الأكبر ابا المتوج مقلد بن نصر بن منقذ[6].

وإذا كانت هذه الإشارات قد جاءت في مواقع متفرقة من "كتاب الاعتبار"، دون أن يقصد على تأطير للحياة الثقافية والعلمية في عصره، إلا أنها ذات دلالات على ما بلغته الحضارة الإسلامية آنذاك من الاهتمام بالعلم النظري أو التطبيقي، على الرغم مما شهدته من صراعات وحروب، وعدم استقرار، قد يحول بين الأزدهار العلمي وتطوره.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) انظر ترجمته في: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص 383.

(2) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 222– 223.

(3) انظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، ج4، ص40.

(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 215– 216.

(5) هو: أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصراني من بغداد، اشتهر بصناعة الطب، ومداواة الأمراض التي شاعت في عصره. انظر: ابن أبي أصبيعة، أبو العباس, أحمد بن القاسم (ت 668هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

(6) ابن منقذ، اسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 196– 197.

الفصل الرابع:

تقنيات القص في " كتاب الاعتبار"

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مدخل

أولاً: عناصر السرد.

أ- السارد.

ب- المسرود له/ عليه

ج- المكان السردي

د- الزمان السردي

1- الاستباق

2- الاسترجاع

هـ- الشخصيات السردية

ثانياً: أساليب السرد.

أ- البناء المتتابع

ب- البناء المتداخل

ج- البناء المتوازي

د- التضمين

ثالثاً: أدوات السرد.

أ- الوصف

ب- الحوار

ج- التبئير والمُتبئر

د- الخطاب السردي

هـ- السرد الأدبي

1- أنماط اللغة السردية

2- استعمال طائفة من الألفاظ الفارسية والتركية واليونانية

و- سرد الخبر الأدبي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مدخل:

يُعد الفعل السردي جزءاً من حيوات الأشخاص، فهو – عادة – ما يحكي عَّما يقومون به من أفعال، يمكن تصور حدوثها – بالفعل – في واقعنا المعيش، فالسرد لا يشكل نسقاً خاصاً منفصلاً من عالم التجربة الذاتية، فليس هو خطاباً لغوياً محضاً، يمكن تفسيره بمعزل عن الواقع الثقافي والفكري والاجتماعي ... المحيط به .

فـ" إن السرد لا يمكن بالفعل أن يأخذ معناه، إلا انطلاقاً من العالم الذي يستعمله، ففيما بعد المستوى السردي يبدأ العالم، أي تبدأ أنساق أخرى (الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والأيديولوجية)، تلك التي لم تُعد الاصطلاحات الوحيدة، بل تستعمل عناصر اصطلاحية أخرى (وقائع تاريخية، تحديدات، أنماط من السلوك). ومثلما تتوقف اللسانيات – في التحليل – عند الجملة، يتوقف تحليل السرد عند الخطاب، وبعد ذلك، ينبغي الانتقال إلى مجال سيميائي آخر"[1].

فهوية الأنا السردية، تتشكل أبعادها وجوانبها داخل السير ذاتي، فيتحول النص (السير ذاتي) إلى سرد لقصة حياة، وهي محطة فصل لحظتين إحداهما تحيل على لحظة الكتابة السردية، وثانيهما تحيل على ماضي الكاتب نفسه، فتغدو هذه اللحظة وصلاً بين زمنين؛ زمن قد انقضى ومضى، وزمن حاضر يمثل لحظة الكتابة، ومنطلق البداية، في رحلة سرد تاريخ الأنا وتحولاته المتنوعة[2].

---

(1) بارت، رولان: التحليل البنيوي للسرد، ضمن كتاب طرائق السرد الأدبي، تر: حسن بحراوي وآخرون، منشورات اتحاد كتّاب المغرب، الرباط، 1992، ص129.

(2) أنظر: بركة، ناصر: أدبية السّير الذاتية في الأدب العربي: بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة لخضر– باتنة، الجزائر، 2013، ص 70.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن خلال هذا السرد تتمظهر علاقات شتى: علاقة الأنا بالآخر، وعلاقته بمحيطه، وما ينشأ عنهما من تفاعلات.

وقد اتكأ أسامة بن منقذ – في "كتابه الاعتبار" – على مجموعة من التقنيات السردية، وهي:

أولاً:عناصر السرد

أ- السارد

الشخص الذي يقوم بالسرد، ويكون شاخصاً فيه، وثمة – على الأقل – سارد واحد لكل سرد ماثل في مستوى الحكي نفسه، مع المسرود له الذي يتلقى كلامه، وفي سرد ما قد يكون هناك عدة ساردين, يتحدثون لعدة مسرودين لهم، أو لمسرود واحد بذاته.

ويعد – في الغالب – ظاهراً، وعلى جانب من المعرفة، وعليماً بكل شيء، وواعياً وموثوقاً به، وربما يكون أو تكون واقعة، أو ماثلة على مسافة قريبة أو بعيدة من المواقف والوقائع المسرودة، وكذلك الشخصيات أو المسرود له. والمسافة[1] قد تكون زمنية، أو قولية، أو ثقافية، أو أخلاقية[2].

ويتنوع السارد في "كتاب الاعتبار"، من حيث درجة الحضور والغياب إلى السارد حاضر في محكيه بشكل أساس، فيكون بطله، ويسمى هذا النوع سارد سيرته الذاتية، وسارد حضوره ثانوي هامشي؛ أي يكون ملاحظاً أو شاهداً، أو مجرد متفرج، وهذا لا يعني غيابه، وحتى إن اختفى هذا

---

(1) المسافة الزمنية كقولنا: أنا أسرد وقائع حدثت قبل ثلاث ساعات، أو قبل ثلاث سنوات، وقوليه، مثل: أنا أسرد بكلماتي الخاصة ما قالته الشخصية، أو إنني استخدام كلماته، أو كلماتها، وثقافية، مثل: إنني ثقافياً أسمى من المسرود له، أو مساوٍ له، أو أقل منه، أو منها، وأخلاقية، مثل: أنا أكثر فضيلة من الشخصيات. أنظر: برنس، جيرالد: المصطلح السردي (معجم مصطلحات)، تر: عابد خزاندار، مراجعة وتقديم: محمد بريري، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، 158.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص 158.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السارد في بعض مراحل محكيه، فإن انطباع القارئ حوله سيبقى في أنه شخصية ضمن الكون الحكائي، وأنه سيعاود الظهور عاجلاً أم آجلاً[1].

فمن النماذج على السارد الحاضر بصورة أساسية ، قوله: "ومن طريف ما جرى لي في الطريق، أنني نزلت ليلة أُصلي المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، وسارت الجمال، فوقفت على رفعة من الأرض، وقلت للغلمان: تفرقوا في طلب الجمال وعودوا إليّ، فأنا ما أزول من مكاني، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم، فعادوا كلهم، وقالوا ما لقيناهم، ولا ندري كيف مضوا.

فقلت: نستعين بالله تعالى ونسير على النّوء[2]، فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا على الجمال في البريَّة على أمر صعب. وفي الأدلاء رجل، ويقال له: جزيَّة؛ فيه يقظة وفطنة، فلما استبطأنا علم أنّا قد تُهنا عنهم، فأخرج قدَّاحة وجعل يقدح، وهو على الجمل، والشرار يتفرق كذا وكذا على البعد، فقصدنا النار حتى لحقناهم، ولولا لطف الله وما أُلهمه ذلك الرجل كنا هلكنا"[3].

وأيضاً، قوله: "...فلما وصلت الجفر[4]، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود، فأخذناه، وتفرق أصحابي، فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً، فجاءت امرأة منهم مسكت ثوبي، وقالت: يا شيخ، أنا في حسبك، قلت: أنت آمنة، مالك؟ قالت: قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة، قلت لغلماني: من كان أخذ شيئاً يرده، فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين، قال: هذا الثوب، وأحضر آخر قطعة سندروس، وقال: هذه الخرزة، قلت: فالحمار

---

(1) انظر: تصنيف السارد من حيث الحضور والغياب جينيت، جيرار: عودة إلى خطاب الحكاية، تر: محمد معتصم، المركز الثقافي العربي، الرباط، 2000، ص 85.

(2) النوء: سقوط نجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. انظر: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (276 هـ): الأنواء في مواسم العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1988، ص10.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 35– 36.

(4) إحدى المناطق في البادية الجنوبية في الأردن، تتبع إدارياً للواء قصبة معان، تبعد عن العاصمة الأردنية عمان أكثر من 200 كم. انظر: موسوعة القرى الأردنية. www.maanl.com

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والكلب؟ قالوا: الحمار قد ربطوا يديه ورجليه، وهو مرمي في العشب، والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى آخر"[1].

ومن ذلك، قوله: "... لما خرج علينا الإفرنج في طريق مصر، وقتلوا عباس بن أبي الفتوح وابنه نصراً الكبير، انهزمنا نحن إلى جبل قريب منّا، فصعد الناس فيه رجّالة يمشون يجرون خيلهم، وأنا على إكديش ولا أستطيع المشي، فصعدت وأنا راكب، وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى, كلما وطئه الفرس انهرّ تحت قوائمه، فضربت الإكديش ليطلع فما استطاع، ونزل, والحصى والنقارة تنزل به، فترجّلتُ عنه وأقمته، ووقفت لا أقدر على المشي، فنزل إليّ رجل من الجبل, فمسك بيدي وبرذَوني[2] في يدي الأخرى حتى أطلعني، ولا والله، ما أدري من هو، ولا عدت رأيته"[3].

يتضح من النصوص السابقة الذكر، أن السارد يتمتع بحضور جلي في السرد، فهو بطل محكيه، لأنه سارد لسيرته الذاتية، فهو على حد تعبير جينيت: سارد خارج/ حكائي جواني الحكي، أي سارد من الدرجة الأولى؛ بمعنى أنه يحكي قصته هو.

فالسارد – هنا – يستخدم السرد المشهدي، وهذا يدل على هيمنة النَّسق الدرامي على البنية السردية، ولا سيما في النصين الأول والثاني، مما يجعلنا نخلص إلى أن ذاكرة السارد ذاكرة حديثيّة؛ بسبب تركيزها على الحركة، وعزوفها – نسبياً – عن الوصف والتأمل.

ولعل النسق الدرامي الذي لجأ إليه السارد في سرد الأحداث أبرز الأحداث في لحظات وقوعها بصورة محددة ومكثفة، أعطت القارئ إحساساً بالمشاركة الجادة فيها، وكأنها أفعال مسرحية، تتحاور فيها الشخصيات، وهي تتحرك، وتمشي، وتفكر.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 34– 35.

(2) البِرْذَون:الدابة, والأنثى: بِرْذونة.انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة (برذن).

(3) المصدر نفسه، ص 115– 116.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما السارد الذي يمثل حضوراً ثانوياً هامشياً، أو ما أطلق عليه جينيت: سارد داخل حكائي/ براني الحكي، أي أنه سارد من الدرجة الثانية يحكي قصة يكون ثانوياً فيها.

ومن نماذج ذلك، قوله: "وكان الوالد، رحمه الله، أرسل رسولاً إلى شهاب الدين، فأخذه معه لمّا جاء لقتالنا، فلمّا طُعن فارس بن زمام، ولم يبلغ منا ما أراد نفّذ الرسول من مكانه بجواب ما سار فيه، ورجع إلى حماة، فسألت الرسول: هل مات فارس بن زمام؟ قال: لا، والله، ولا فيه جرح، قال: ليث الدولة طعنه وأنا أراه، فرماه, ورمى حصانه.

وسمعت قعقعة كسر الرمح، لما غشيه ليث الدولة من يساره على جانبه الأيمن وفي يده قنطاريته، فوقع حصانه على قنطاريته، وهي على وهدة فانكسرت، وتذنّب ليث الدولة برمحه، فوقع من يده، والذي سمع قعقعة قنطارية فارس بن زمام، ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين، وأنا حاضر، وهو صحيح ما فيه كسر، ولا في فارس جرح، فعجبت من سلامته، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل"[1].

وكذلك قوله: "وطعن رجل من أجنادنا كردي، يقال له: مياح فارساً من الإفرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله، ثم إن الإفرنج غاروا علينا بعد أيام، ومياح قد تزوج وخرج، وهو لابس, وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس قد تشهر به، فطعنه فارس من الإفرنج فقتله، رحمه الله، يا قرب مأتمه من العرس"[1].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 61.

(1) المصدر نفسه، ص 71.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك – أيضاً – قوله: "وكانا، رحمهما الله، [عمه عز الدولة، ووالده] من أشجع قومهما، ولقد شهدتهما يوماً وقد خرجا إلى الصيد بالبزاة نحو تل ملح[1]، وهناك طير ماء كثير، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه، فرجعنا وكان الوالد من أثر مرض، فأما عمي فخفّ بمن معه من العسكر، وسار حتى عبر من المخاض إلى الإفرنج، وهم يرونه، وأما الوالد فسار والحصان يخبّ به، وأنا معه صبي، وفي يده سفرجلة يمتص منها، فلما دنونا من الإفرنج قال لي: أمضِ أنت ادخل من السّرك، وعبر هو من ناحية الإفرنج[2].

ويتبدى مما سبق ذكره من النصوص، أن السارد قد اتكأ على تقانة التداعي والتذكر والاسترجاع، إذ ردنا إلى الماضي، فجاءت ملبية للسياق الداخلي الخاص لحركة الشخوص، أو المواقف التي مر بها، فذاكرة السارد – هنا – تأملية؛ لأن الحكاية مرت وانتهت، وما زال ينعم في تذكرها، ويعيش بوحيها.

ويتطوع السارد – أيضاً – ليصادر دور القارئ في الاستنتاج، وليصادر دور الحدث في أن ينطق ما لديه، مما يعني أن القارئ لا يسمع إلا صوت السارد، ولا يرى الأشياء إلا من خلال وجهة نظره، وإذا كان للشخصيات رأي آخر، فإننا لا نعرفه إلا من خلاله.

وثمة راوٍ آخر، وهو ما يعرف بالسارد الثانوي الذاتي، وهذا السارد – على مستوى السرد– عادة ما يسرد بضمير المتكلم، ويظهر هذا في الأفعال (حدثنا وحدثني) وما شاكلهما[1].

---

(1) قرية سورية في محافظة حماة. انظر: .ar.wikipedia.org/wiki

(2) ابن المنقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 78– 79.

(1) انظر: الهدروسي, نور مرعي: السرد في مقامات السَّرقُسطي، عالم الكتب الحديث، إربد، 2009، ص46.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتجلى ذلك في غير نص من سيرة أسامة بن منقذ، منه قوله: "ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبدالله المشرف، قال: حُبست بِحَيْزان[1]، وقُيدت وضُيق عليّ، فأنا في الحبس والموكلون على بابه، فرأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في النوم، فقال: اقلع القيد واخرج، فانتبهت جذبت القيد، فخرج من رجلي، وقمت إلى الباب أريد أفتحه، فوجدته مفتوحاً، فتخطيت الرجال الموكلين إلى منفس في السور ما ظنت يدي تخرج منه، فخرجت منه"[2].

وكذلك قوله: "وحدثني خُطلّخ مملوك لوالدي، رحمه الله، قال: كنا في حصار الروم جلوساً في دهليز الحصن (شَيْزر) بِعُددنا وسيوفنا، فإذا شيخ قد جاءنا يعدو، وقال: يا مسلمون الحريم! دخل الروم معنا، فأخذنا سيوفنا وخرجنا, وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق، فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم..."[3].

وقوله أيضاً: "ولقد حدثني رجل ... يقال له سالم العجازي, انتقل إلى خدمة والدي، قال: نهضنا يوماً، وأرسلنا علياً عبد ابن أبي الريداء بكرة[4], يديدب/يتجسس لنا، فجاءنا وقال: ابشروا بالغنيمة! هذه قافلة كبيرة مقبلة، فنظرنا ما رأينا شيئاً، فقلنا: ما نرى قافلة ولا غيرها، قال: والله إني لأرى القافلة وقدّامها فرسان... فأقمنا في الكمين إلى العصر، فوصلتنا القافلة ... فخرجنا أخذنا القافلة"[5].

---

(1) بلد قرب أسعرت من ديار بكر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 331.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص116– 117.
(3) المصدر نفسه، ص 134.
(4) لم أعثر على ترجمة له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع. وقد ورد في كتاب الاعتبار,ص 148.
(5) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 148.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

يتبين من النصوص الآنفة الذكر، أن السارد الثانوي – هنا – هو أسامة بن منقذ، ولكن الانزياحات التي حدثت في الضمائر، أدت إلى التحول في الوظائف، فبعد أن كان غيرياً في النصوص التي قدمناها شاهداً على السادر الحاضر بصورة أساسية، جاء – هنا– ذاتياً.

والفارق بينهما أن السارد / أسامة بن منقذ في النصوص التي كان فيها سارداً حاضراً أساسياً كان مشاركاً رئيساً في الحدث، أما – هنا – فهو مراقب وناقل له، ولذلك حصل التغير بين صيغ التعبير في الأفعال الماضية بين جرى لي، وصلت، خرج علينا... إلى حدثني.

ومثل هذه النصوص تحتوي أكثر من راوٍ، ومهما يكن من أمر، فإن السارد سواء أكان مشاركاً في الأحداث، أم غير مشارك، فإن دوره يظهر – على حد تعبير دولوزل (Lubomir Doilzel) "في أدائه وظيفة التصوير، وتتحدد هذه الوظيفة دائماً مع وظيفة المراقبة؛ لأن السارد يراقب البنية النصية؛ بمعنى أنه قادر على إدراج خطاب الشخصيات ضمن خطابه الخاص، إضافة إلى هاتين الوظيفتين، فالسارد حر في أداء أو عدم أداء وظيفة التأويل الاختيارية؛ أي في التعبير، أو عدمه عن موقف تأويلي أيديولوجي[1].

ولعل دور السارد في "كتاب الاعتبار" – سواء أكان مشاركاً أم غير مشارك – أو على الأقل كما تجليها النصوص السابقة التي أوردناها منذ الحديث عن السارد، تتمثل في الآتي:

1. وظيفة وصفية؛ إذ يقوم السارد بتقديم مشاهد وصفية للمنازلات وأعمال الفروسية، فيتيح للحكي أن يتشكل في صفاء بعيداً عن تأملات السارد وآرائه[2]

(1) انظر: بكر، أيمن: السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص46.
(2) انظر:إبراهيم، عبدالله: السردية العربية،المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ج1، ص149– 150.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتمثل ذلك في ما قصه عن الإفرنج وقتلهم عباس بن أبي الفتوح وابنه نصر الكبير، وطعن الرجل الكردي، وحديثه عن عمه وأبيه، رحمهما الله، وتصويره شجاعتهما في مواجهة الإفرنج.

2. الوظيفة الإخبارية أو الإبلاغية: وهي الوظيفة التي يتكفل السارد بموجبها بنقل الأحداث والإخبار عنها إلى المسرود له، وهي من ركائز أي نص سردي[1]، ويتجسد ذلك في كل ما ساقه الباحث من نصوص من "كتاب الاعتبار".

3. وظيفة تأصيلية؛ وفيها يقوم السارد بتأصيل مروياته في التاريخ والثقافة العربية، ويجعل منها أسفاراً للصراع القومي والديني، وبربطها – أحياناً – بالمآثر العربية المعروفة في الانتصار على الخصوم[2].

ويتمثل ذلك في الروايات التي تتعلق بالصراع مع الإفرنج، كما في قصة طعن الرجل الكردي، ومواجهة عمه وأبيه للإفرنج، وانتصار المسلمين على جيش أنطاكية.

ب–المسرود له / عليه:

أخذت مسألة (المسرود له) اهتماماً كبيراً من الباحثين في شؤون السرديات، كونها ضرورية لدراسة الطريقة التي يتحرك من خلالها السرد، علاوة على أنها لا تقبع داخل مظلات الحكي برمتها، سواء أكانت شفهية، أم نصية، كتابية، تصف أحداثاً واقعية، أو أسطورية[3].

---

(1) انظر:إبراهيم،السيد: مدخل إلى نظرية القصة: دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة القصة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص 104.

(2) انظر:إبراهيم، عبدالله: السردية العربية، ج1، ص 150.

(3) انظر: أبو جملين، مصطفى: ثنائية (السارد/ المسرود له) في كتاب (في نظرية الرواية)، لـ: عبدالملك مرتاض، قراءة مصطلحية مفهومية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري – جامعة بسكرة، الجزائر، ص 269.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما في ما يتعلق بالتسميات الاصطلاحية المقابلة لـ (المسرود له)، فقد تباينت لدى النقاد، فبعضهم يرى أنه "القارئ" و "المتلقي" و "المرسل إليه" و "المتَحدث إليه" و "المتَقبَل" وبعضهم يطلق عليه تسميات خاصة تابعة من ثقافته وذوقه، ورؤيته للمصطلح، فيسميه بـ "المروي له"، و "المروي عليه"[1].

ولعله من المهم التنويه على المصطلحات التي تجد تضايفاً معه، والتي نجد من ضمنها: "المروي له"، و"المسرود إليه"، و "القارئ الضمني"، و"القارئ المفترض"، و "القارئ المحتمل..."[2].

ويقدم – لنا – جيرالد برنس (Gerald prince) تعريفاً لـ "المسرود له"، بقوله هو: "الشخص الذي يُسرد له، أو المتموضع، أو المنطبع في السرد، وهناك على الأقل مسرود له لكل سرد يقع في مستوى الحكي للسارد نفسه، الذي يوجه الكلام له، أو لها"[3].

والمسرود له/عليه الذي تلقى كتاب أسامة بن منقذ "كتاب الاعتبار"، غامض، فلم يشر إلى هويته الكتاب، أو إلى أي صفة من صفاته.

وقد يكون المسرود له/عليه صلاح الدين الأيوبي. فلعل أسامة بن منقذ أراد من كتابه أن ينبه السلطان صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله، إلى أن الموت لن يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، وأن العمر مؤقت، لا يتقدم ولا يتأخر؛ لذا فإن جهاده الإفرنج، ومقارعته إياهم، لن يقدم أجله،

---

(1) أنظر: الخفاجي، أحمد رحيم كريم: المصطلح السردي في النقد الأدبي الحديث، دار صفاء، عمان، 2012، ص 223 – 224.

(2) أنظر: بوجملين، مصطفى: ثنائية السارد/ المسرود، ص296.

(3) برنس، جيرالد: المصطلح السردي (معجم مصطلحات)، ص 142.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولن يؤخره، وهو ما أراده أسامة بن منقذ، وقصد على تبيانه؛ ليستثير عزم صلاح الدين، حتى يجدَّ في جهاد الإفرنج[1].

يقول ابن شداد: فقد كان: "الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه (صلاح الدين) يحثه على الجهاد"[2]، فلربما أراد أسامة بن منقذ هذا، وقصد إليه في كتابه، أي ما أراده من إهداء كتابه على صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله، في مقدمته التي ضاعت مع ما ضاع من أوله[3].

وربما يكون المسرود له / عليه أهل العصر الذي كتب فيه الكتاب، وربما هو القرَّاء لهذا الكتاب، ونستطيع أن نقول أن السارد في بعض الحكايات، ولاسيما أخبار الصالحين، هو(أسامه بن منقذ) المسرود له نفسه، فهو معني بكامل هذه الأخبار.

يقول: "وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن قاسم الحموي بحماة في التاريخ المتقدم أن رجلاً كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر, رحمه الله, أتى أهله, وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة فقال: سمعت الساعة عجباً!! قالوا: وما هو؟ قال: مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه. وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما. فقلت: إن هذا البستان نصفه لي بحق عملي.ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك. فقال أحَجَّ العام؟ قلت: نعم. قال: البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه. فخرجوا في أثره ليستفهموا منه, فرأوه على بعد لا يمكنهم لحاقه. فعادوا وورخوا الحديث, فكان الأمر كما قال." [4].

---

(1) انظر: السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص20.

(2) ابن شداد، بهاء الدين (ت 632هـ): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفة أو سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994، ص53.

(3) السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص 20.

(4) ابن منقذ، اسامة: كتاب الاعتبار، تح: السامرائي، ص 187.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن العلاقة التي نشأت بين السارد والمسرود له / عليه، في هذه الحكاية وأمثالها، علاقة وطيدة، توطدت من خلال المشاركة الزمنية في أحداثها؛ لأن كلاً منها (السارد والمسرود له/ عليه) مشارك مشاركة فعلية في أحداث هذه الحكاية.

وإن كان المسرود له/ عليه مهمته الرئيسة، هي الاستماع فقط، ومع هذا فهو جزء من العملية السردية في مثل هذه الحكايات، وشخصية المسرود له/ عليه لا تقدم أي درجة من درجات النقد، فهي مسرود له/ عليه في درجة الصغر، فهو ذو تأثير سلبي؛ أي أنه لا يشارك – في رأيه – السارد.

فهو – بمثابة حلقة الوصل بين السارد والمتلقي، في نقل تلك الحكايات إلى مسامع القارئ، وكأنه ينقل أفكار السارد – بطريقة غير مباشرة إلى المتلقي، فهو عنصر فعال في تأكيد هذه المضامين والأفكار.

ويمكن تلخيص وظائف المسرود له/ عليه في ثلاث وظائف، الأولى: التشخيص، إذ يتحول السارد في مثل الحكاية السابقة إلى مسرود له/ عليه، وفي ذلك فائدة للمتلقي، فيستطيع السارد أن يبين الطبيعة المكونة لشخصية المسرود له/ عليه.

فبعد أن كان السارد، يسرد – لنا – الأحداث التي قدمنا بعضها في الفصول السابقة، نراه في هذا الباب/ النوادر والحكايات المتعلقة بالصالحين، يتحول إلى مسرود له/ عليه.

الثانية: التوسط بين السارد والمتلقي، إذ كان يقوم بنقل هذه الحكايات إلى المتلقي، ورؤى السارد إليه/ المتلقي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الثالثة: تأكيد المحتوى والمضمون، وإيصاله إلى المتلقي بطريقة غير مباشرة، فكأن المسرود له/ عليه يؤمن بمثل هذه الأفكار، فيريد إيصالها إلى المتلقي وتأكيدها في ذهنه.

ج- المكان السردي

يحمل المكان في طياته قيماً تنتج من التنظيم المعماري، والتوظيف الاجتماعي، فيعرض كل مكان سلوكاً خاصاً يلجأ الناس إليه، فالأماكن الدينية – مثلاً – تفرض علينا ارتداء ملابس محتشمة، وكلاماً بصوت خفيض[1]، كما أن المكان هو الذي يؤسس الحكي، ويحفز الشخصية على فعل الحدث.

وقد تعدد المكان في "كتاب الاعتبار" وتنوع، نتيجة اتساع الأماكن التي تنقل فيها أسامة بن منقذ، منذ ولادته في قلعة (شيزر) على ضفاف نهر العاصي في حماة، وتنقله في معظم المدن السورية؛ كدمشق، وحلب، وحمص وغيرها، ثم القاهرة، والموصل، فضلاً عن زيارته بيت المقدس في فلسطين، وحجه إلى الحرمين، كما جاء هذا التنوع بسبب الحروب والمعارك التي خاضها الإفرنج في بقاع شتى من بلاد الشام.

ولذلك جاءت مذكراته الموسومة بـ "كتاب الاعتبار" مرآة تتجلى فيها المدنيّة الشامية في أجلى مظاهرها، وذلك ليس بحد ذاتها فقط، بل بالمعارضة مع المدنيّة الإفرنجية التي قامت إلى جانبها[2].

---

(1) انظر: الخروبي، غدير عثمان: المكان في رواية مدن الملح لعبدالرحمن منيف، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، 1993، ص 10.

(2) انظر: حتي، فيليب: مقدمة كتاب الاعتبار، ص 3-4.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعل أكثر الأماكن وروداً في كتاب أسامة بن منقذ (قلعة شيزر)، إذ ذكرها أكثر من ستين مرة، فهي علاوة على كونها المكان الذي ولد وترترع فيه، وشهد لحظات لهوه وصيده، فهي – أيضاً – موطن مصافاته ووقعاته مع الإفرنج، ففيها أول قتال حضره.

يقول واصفاً تلك الوقعة: "... فرجعت على فارس في أوّلهم قد ألقى عنه درعه، وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا، فطعنته في صدره، فطار عن سرجه ميتاً، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولّوا، وأنا غرّ من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم، وتحتي فرس مثل الطير، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتنُّ (أختفي) عنهم.

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب، أنا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود علي، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه، فلوّح بذنبه، فعلمت أنه قد أعيا، فحملت عليه طعنته، فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع، وخرجتُ من السرج لخفة جسمي, وقوة الطعنة وسرعة الفرس، ثم تراجعت وجذبت رمحي, وأنا أظن أني قتلته، فجمعت أصحابي وهم سالمون"[1].

فالمكان – هنا – يجسد الوجود المادي الذي حدثت فيه أولى لقاءات أسامة بن منقذ مع الإفرنج، فهو مكان حقيقي لا خيالي، استوعب الحدث بكل تفاصيله، مما جعل له خصوصية ذات بعد سيكولوجي/ نفسي، كشف شجاعة أسامة بن منقذ، وشدة بأسه.

ويظهر ذلك عندما استخبره والده، رحمه الله، عما فعل ذلك اليوم، فقال: "يا مولاي، كان أول قتال حضرته، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا هان عليّ الموت، فرجعت إلى الإفرنج لأُقتل أو أحمي ذلك العالم، فقال، رحمه الله، متمثلاً:

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 63 – 64.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يفــرُّ جَبــانُ القــوْمِ عــن أُمِّ رأسِــهِ ويَحمــي شُــجاعُ القــوْمِ مَــن لا يُلازمُــه"[1]

كما يمثل بعداً جمالياً أضاء مكان الحدث، بصفته الوعاء الذي احتضن جوانب الصراع، أضف إلى ذلك الإضاءات التي منحها للشخصيات التي اشتركت في صنع هذه الأحداث. فالمكان هو الذي تدور فيه الأحداث، ويتكلم في إطاره الراوي[2].

وعكس المكان، (شيزر) طبيعة الصراع، والهوية التاريخية، والظروف السياسية والحربية، وسيرورة الأحداث آنذاك، يقول أسامة بن منقذ: "وشاهدت – من لطف الله تعالى وحسن دفاعه – أن الإفرنج، لعنهم الله، نزلوا علينا بالفارس والراجل، وبيننا وبينهم العاصي، وهو زاد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا, ولا نقدر نحن نجوز إليهم، فنزلوا على الجبل بخيامهم، ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، هملوا خيلهم في الفصيل وناموا، فتجرد شباب من رجالة شيزر، وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم، وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم، وتكاثروا على أصحابنا، فرموا نفوسهم إلى الماء، وجازوا..." [3].

فالمكان ارتبط بالإدراك الحسي، وأسقط أيضاً الإدراك النفسي على الأشياء المحسوسة؛ لتوضيحها والتعبير عنها، إذ مثل الأرضية التي وقعت فيها الأحداث، فهو ليس فضاءات خرساء، بل "يشكل مرآة للنص تبدو – لنا – بوجهين: داخلي، خارجي، وذلك من خلال الإيحاءات الدلالية والنفسية المكثفة... أما الوجه الآخر – من المرآة – فلا يسمح بالرؤية المباشرة للمتلقي، بل يضفي

---

(1) لم أعثر على هذا البيت في ديوان أسامة بن منقذ, ولا في غيرة في ما توافر لدي من مصادر ومراجع, وقد ورد في كتاب الاعتبار,ص64.

(2) انظر: يقطين، سعيد: مدخل إلى تحديد خطاب الرحلة، مجلة الأقلام، بغداد، ع 5 + 6، 1993، ص 75.

(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 114.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مزيداً من الضبابية التي لا تنقشع إلا بعد قراءة النص كاملاً، وتعلق ذلك بتأويل القارئ للنص إلى جانب تلك الملامح النفسية التي تظهر للمكان عبر حضوره النصي والإنتاجي"[1].

ولشيزر حضور آخر في "كتاب الاعتبار"، يتمثل في اللهو والصيد، فقد عشق أسامة بن منقذ الصيد منذ نعومة أظفاره، فكان يصطاد مع والده وعمه، ومع الملوك والقادة والأمراء أينما حل.

يقول: "... ولنا بشيزر متصيّدان: متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي البلد، ومتصيد لطير الماء والدرّاج والأرانب والغزلان على النهر ... من غربي البلد"[2].

فهي مكان أليف محبوب لدى أسامة بن منقذ؛ لأنها تمثل مرحلة مهمة من مراحل حياته، وذكريات شبابه، وتجسد العلاقة الحميمة بينه وبينها، ولهذا نراه يصرح في بداية كتابه (المنازل والديار): "ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها – وهي أول أرض مس جلدي ترابها – فما عرفت داري، ولا دور إخوتي، ولا دور أعمامي، وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه، وانتزاع ما خوّله من نعمائه..." [3].

ويمضي أسامة بن منقذ في استرجاع بعض ذكرياته في هذا الجانب، فكانت سنوات طفولته ونشأته في ذلك المكان غنية بأحداثها، يقول: "وكان الوالد، رحمه الله، يمضي إلى حصن الجسر، وهو كثير الصيد، فيقيم فيه أياماً، ونحن معه نصيد الحجل والدرّاج وطير الماء والغزلان والأرانب..."[4].

---

(1) العدواني، معجب: تشكيل المكان وظلال العتبات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، رمضان, 1423، نوفمبر، 2002، ع 12، ص26.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، 206– 207.

(3) ابن منقذ، أسامة: المنازل والديار، تح: مصطفى حجازي، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2004، ص 7.

(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 225.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكأني به يستعيد مما اختزن في ذاكرته من لحظات تشي بالحزن، وتذكرنا بما قاله غاستون باشلار (Gaston Bachelard): "إن البيوت الحقيقية للذاكرة، البيوت التي نعود إليها في أحلامنا، البيوت الثرية بأحلام اليقظة... بيت أحلام اليقظة, يجب أن يحتفظ بظلاله. إن ذلك ينتمي إلى أدب العمق"[1].

ولم يقتصر الحضور المكاني على قلعة شيزر، بل تمثل في غير مكان، من أبرزه: دمشق التي ورد ذكرها نحو ثمان وعشرين مرة، وحماة نحو عشرين مرة أيضاً، وحلب ثلاث عشرة مرة.

والجدير بالذكر أن هذه المدن من حيث إنها سياق جغرافي، وحيز ما, لم يختلف تشكل الأحداث فيها: فهي إما أن تكون ساحة حرب ومواجهة وقت الصراع والحرب مع الإفرنج، أو مواطن للصيد والطراد، فالمكان كيان من الفعل والمحتوى، إلى كونه حقيقياً، ذا بعد اجتماعي، ونفسي، وجمالي[2].

ويمكن أن نطلق على هذه الأمكنة: الأماكن التاريخية الحربية التي شهدت الوقائع والحروب مع الأعداء، وأماكن الطبيعة الصامتة والمتحركة التي كانت متنزهاً ومصطاداً له، ولمن يصطحبه إليها.

وإذا كانت هذه الأماكن في أساسها تاريخية حربية، فهي – أيضاً ذات دلالة نفسية وجمالية، مستقرة في وعي الأديب، أعاد تشكيلها من خلال اللغة التي يحكمها الخيال، فـ "المكان لا يعتمد على اللغة وحدها، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكله بوساطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد

---

(1) باشلار، غاستون: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984، ص 42.

(2) انظر: النصير، ياسين: إشكالية المكان في النص الأدبي: دراسة نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 8.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يتناقض مع هذا الواقع، غير أنه يظل – على الرغم من ذلك – واقعاً محتملاً، إذ إن جزئياته تكون حقيقية، ولكنها تدخل في سياق حلمي يتخذ أشكالاً لا حصر لها، يصل إليها الخيال"[1].

ويتعدد المكان في " كتاب الاعتبار" إذ يمتد إلى مساحات شاسعة من الأقطار العربية الإسلامية؛ ليصل إلى ما يقرب من مئة وثمانية وتسعين مكاناً, كانت كلها مركزاً للأحداث، أو نقطة انطلاق لها، ومن هنا جاءت أهميته، فـ "المكان لا تبدو له أهمية إلا عندما يحدث فيه شيء ما"[2].

د- الزمان السردي

يعد الفضاء الزمني ركناً رئيساً من أركان بناء الشكل السردي أيّاً كان، فالعملية الإبداعية بصفة عامة، والسردية بصفة خاصة لا تنشأ من فراغ؛ أي من خيال بحت، وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة: الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ... من حيث كون العملية الإبداعية عملاً مؤثراً ومتأثراً، يفيد ويستفيد من المحيط عامة، وبالتالي فهي واقعية لتناولها الواقع بكل ما يزخر به من أحداث ووقائع مختلفة: تاريخية وسياسية وثقافية... [3].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(1) عثمان، إعتدال: إضاءة في النص قراءة في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998، ص7.

(2) العروي، عبدالله: تداخل البنى السردية والتركيبية والرؤية للعالم في الغربة واليتيم، الطائع الحداوي، مجلة الأقلام، بغداد، ع6، 1987، ص101.

(3) انظر: القيسي، فايز: جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم (قراءات في الرؤيا والتشكيل)، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2012، ص 26.

كما أن لكل عمل سردي له نمطه الزمني وقيم الزمن الخاص به، ويستمد كفاية تعبيره من ذلك النمط، وتلك القيم وإيصالها إلى المتلقي، فجميع طرائق القصة وأدواتها تنتهي في التحليل الأخير إلى المعالجة التي توليها لقيم الزمن وسلاسل الزمن، وكيف تضع الواحدة في مواجهة الأخرى[1].

يرتكز البناء السردي في "كتاب الاعتبار" أيضاً على عنصر الزمن في مختلف تشكيلاته وتمظهراته التي تؤديها اللغة عن طريق وظائفها البلاغية والجمالية، وقد أدى ذلك إلى إبداع مسارات جديدة في حركة الزمن, تجاوزت الترتيب المنطقي المبني على تسلسل الأحداث زمنياً إلى الترتيب اللامنطقي المبني على الاسترجاع والإستذكار، مما أفضى – بالتالي – إلى كسر التسلسل والتراتب الزمنيين.

ومن – هنا – نجده يشير إلى ما جرى من حوادث سنة (468 هـ)، إذ يقول: "وفي سنة ثمان وستين وأربع مئة, بدأ جدي سديد الملك أبو الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني بعمارة حصن الجسر، وحصر به حصن شيزر"[2].

ثم يشير إلى تسلم جده لحصن شيزر من الروم مقابل مال دفعه إليهم: "وتسلم جدي حصن شيزر يوم الأحد في رجب سنة أربع وسبعين وأربع مئة، واستمر سديد الملك علي بن مقلد المذكور مالكها إلى أن توفي فيها في سادس المحرم سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وتولى بعده ولده أبو المرهف نصر بن علي إلى أن توفي سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وتولى بعده أخوه أبو العساكر

---

(1) انظر: مندلاو، أ.أ: الزمن والرواية، تر: بكر عباس، مراجعة:إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1997، ص 75.

(2) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 15.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سلطان بن علي إلى أن توفي فيها، وتولى ولده محمد بن سلطان إلى أن مات تحت الردم، هو وثلاثة من أولاده بالزلزلة... سنة خمسين وخمس مئة، في يوم الاثنين، ثالث رجب"[1].

ثم ينتقل إلى سنة ثلاث وخمس مئة، فيقول: "حضرت من المصافات والوقعات مهول أخطارها، واصطليت من سعير نارها، وباشرت الحرب, وأنا ابن خمس عشر سنة إلى أن بلغت مدى التسعين..." [2].

وينتقل إلى سنة سبع وخمس مئة إلى وقعة كانت بينهم وبين الإسماعيلية[3] في قلعة شيزر، عندما وثبوا على الحصن[4]، ثم ينقلنا إلى سنة خمس وعشرين وخمس مئة، فيذكر وقعة حدثت بين عسكر حماة وعسكر حمص، إلى أن يصل بنا إلى سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، حيث مصاف على قنسرين بين أتابك زنكي وبين الفرنج[5].

ويتبدى من النصوص السابقة الذكر أن أسامة بن منقذ لم يلتزم الدقة في التسلسل الزمني للأحداث، بل راح ينتقل بنا بين فترات زمنية متقطعة منذ سنة (468 هـ)، إلى سنة (474 هـ) إلى سنة (479 هـ), وهكذا إلى أن أوقفنا على سنة (531هـ).

---

(1) انظر: ابن منقذ, اسامة: الاعتبار, تح: السامرائي، ص16.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص16.

(3) فرقة باطنية انتسبت زوراً وبهتاناً إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل ابيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام وأركانه. من عقائدهم: إنكار وجود الله تعالى، والقول بوجود إلاهين (العقل والنفس)، وأن محمد – صلى الله عليه وسلم – ليس خاتم النبيين... انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ): فضائح الباطنية، تح: عبدالرحمن بدوي، وزارة الثقافة، القاهرة: 1964، ص 38– 55.

(4) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 17.

(5) انظر: المصدر نفسه، ص 17.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فربما يكون بين هذه السنوات التي أغفل ذكرها – لسبب أو لآخر – ما يستحق الدرس، أو ما يفيد المتلقي. فهل ثمة ما هو مسكوت عنه، لم يشأ صاحب (الاعتبار) إطلاع القارئ عليه؟ بالطبع نعم.

ولهذا لم نجد لديه – مثلاً – ذكراً لغرامياته وحياته العاطفية التي ألمح إلى بعضها في كتابيه: المنازل والديار، وديوان شعره.

وقد نجم تكسير التسلسل الزمني في "كتاب الإعتبار" عبر توظيف تقانة الاستباق، والاسترجاع:

1- الاستباق:

وهو؛ تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلاً في ما بعد، فيقوم السارد باستباق الحدث الرئيس في العمل السردي، بأحداث أولية، تمهد للآتي، وتومئ للقارئ باستشراف ما يمكن حدوثه، أو قد يشير السارد بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سيقع في السرد[1].

وتمثلت حركة الاستباقات، المتضمنة التكثيف الزمني، الذي أفسح المجال أمام التخييل، من خلال الانتقال اللامنطقي في السرد الزمني، في "كتاب الاعتبار" إذ يقول السارد: "ووقعة بين السودان بمصر في أيام الحافظ في سنة أربع وأربعين (وخمس مئة)" [2]، فقد اختزل السارد/ الراوي حركة الزمن بعبارة قصيرة.

إن المتمعن في قول أسامة بن منقذ:" "ووقعة بين السودان بمصر في أيام الحافظ في سنة أربع وأربعين", يجد أنه ينطوي على "استباقه كبرى ", إذا جاز التعبير , احتضنت بداخلها الواقعة كلها

---

(1) القصراوي، مها حسن: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 211.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص17.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التي سيتوقع المتلقي ما سيحدث فيها, بناءً على هذه الجملة التي تضم بداخلها استباقات صغرى, وكأنها رحم تتوالد منه الاستباقات .

وبالعودة إلى هذه الواقعة التي استعاد فيها السارد حياة حافلة بالأحداث إذ وقع بين السودان, وهم في خلْق عظيم, شرُ وخلف, راح ضحيته ألف رجل, ثم فاؤوا إلى الصلح, وبعد موت الحافظ, جلس بعدة الظافر بأمرالله, وهو أصغر أولاده, وقد استوزر نجم الدين بن مصال, وكان شيخاً كبير السن.

ويتابع السارد سرد بعض الأحداث التي شهدتها هذه السنه؛ كانتصار العباس على بن مصال, حيث قتله وحمل رأسه إلى القاهرة, فخلع الظافر على العباس خِلع الوزارة, ولقبه الملك العادل, مع أن الظافر كان كارهاً له, ولم يلبث أن عمل على قتله.

إن تقنية الاستباق في هذا الحدث ملفتة للنظر, فمنذ أن بدأ الحدث بقول أسامة بن منقذ:" ووقعة بين السودان...", فبعدها بصفحاتٍ قرأنا حيثياته وتفاصيله, فالصفحات التالية تكفلت ببيان هذه الواقعة وتفسيرها, وما أعقبها من تداعيات.[1]

فالسارد قدم هذه الأحداث على جرعات أو دفعات, كان يستذكرها في أحايين كثيرة, وفي كل جرعة أو مشهد يتعرف المتلقي على بعد جديد من أبعادها, أو جانب متوارٍ من جوانب السارد, كما في قوله:" وبلغ الخبر إلى ابن السلار, فاستدعاني في الليل, وأنا معه في الدار, وقال: هؤلاء الكلاب- يعني جند مصر- قد شغلوا الأمير -يعني عباساً- بالفوارغ حتى عاد إلى قومٍ من لواته سباحة, فانهزموا عنه, ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة والأمير موافقهم.

---

(1) انظر: ابن منقذ, أسامة: الاعتبار,تح:السامرائي,ص29 -31.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قلت: يامولاي نركب إليهم في سحر, وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم, إن شاء الله تعالى."[1]

ومن ذلك قوله:"... وقعة كانت بيننا وبين الإسماعيلية في قلعة شيزر لما وثبوا على الحصن في سنة سبع وخمس مائة[2].

بهذا السرد المتقدم الذي سبق الأحداث التي سيرويها لنا في صفحات بعيده, وبصيغة ضمير المتكلم, يقول:"أذكرني قوة نفس هذه الكلبة [بريكة الساحرة] بأمور جرت للنساء في الوقعة التي كانت بيننا وبين الإسماعيلية, وإن لم تكن سواء...

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي, رحمها الله, سيوفي وكزاغنداتي, وجاءت إلى أخت لي كبيرة في السن, وقالت: البسي خفك وإزارك, فلبست, وأخذتها إلى روشن[3]...

قلت: فأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ قالت: يابني, أجلستها على الروشن وجلست براً منها, إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا, دفعتها رميتها إلى الوادي, فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة ...

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي, رحمه الله, يقال لها: فنون, فأخذت سيفا, وخرجت إلى القتال, وما زالت كذلك حتى صعدنا, وتكاثرنا عليهم."[1]

---

(1) ابن منقذ, اسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص31.

(2) المصدر نفسه, ص17.

(3) الروشن والروشان واحد, وهو الكوة أو النافذة دون عائق. انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة (رشن).

(1) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار,تح:السامرائي,ص144 – 145.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وبما أن هذه الأحداث, قد رويت بضمير المتكلم, فهي– على رأي جينيت – أكثر ملاءمة للاستشراف من الحكاية التي رويت بأي ضمير آخر؛ وذلك بسبب طابعها الاستعادي المصرح به بالذات, والذي يرخص للسارد في تلميحات إلى المستقبل؛ مما يجعل المتلقي يتوقع من خلال هذه الإشارات ما الذي سيحدث.[1]

والاستباقات المستخدمة في "كتاب الاعتبار" قليلة جداً, إذا ماقورنت بالاسترجاعات, فالاسترجاع يفيد النصوص السردية أكثر مما يفيدها الاستباق؛ وذلك لأن الاستباقات تفقد النص السردي عنصر التشويق, الذي يعد بمثابة العمود الفقري له.

وكذلك، قوله: "ووقعة كانت بين الملك العادل بن السلار وبين ابن مصال في السنة أيضاً"[2]، وقد أعاد الحديث عنها مرة أخرى مفصلاً[3]، ويختص الاستباق – غالباً بالعمل السردي الذي يحكي السير الذاتية، أو الذي يهيمن فيها تقنية المحكي بضمير المتكلم[4].

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(1) انظر: جينيت, جيرار : خطاب الحكاية, تر: محمد معتصم وآخرون, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, ط2 , 1997, ص77.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص17.

(3) انظر: المصدر نفسه، ص 31– 32.

(4) منصوري، نجوى: الموروث السردي في الرواية الجزائرية روايات "الطاهر وطار وواسيني الأعرج" أنموذجاً مقاربة تحليلة تأويلية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2011، ص 231.

2- الاسترجاع:

وعرف الاسترجاع بأنه: "مخالفة لسير السرد، تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق"[1]، ويتخذ عدة مستويات، أشهرها : أ. استرجاع خارجي؛ يعود إلى ما قبل بداية الرواية. ب. استرجاع داخلي؛ يعود إلى ماض لاحق لبداية الرواية.[2].

وهذا الاسترجاع – بنوعية – كان حاضراً في "كتاب الاعتبار"، جراء طبيعة السارد بما اكتنفه من قلق واضطراب، انعكس أيضاً على الزمن السردي.

أ. **الاسترجاع الخارجي**، حيث عاد بنا السارد إلى أحداث عادت إلى ما قبل بداية سيرته، فحدثنا عن سنة ثمان وستين وأربع مئة، إذ بدأ جده سديد الملك بعمارة حصن الجسر، وتسلمه حصن شيزر بفدية من الروم، ثم حديثه عن الزلزلة التي أتت على معظم آل منقذ سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة[3].

ومن ذلك قوله:"وذكرت بفعلة سرهنك مافعله مالك بن الحارث الأشتر,[4] رحمه الله, بأبي مسيكة الأيادي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(1) زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، بيروت، 2002، ص 18.

(2) قاسم، سيزا: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص 40.

(3) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 15- 16.

(4) هو مالك بن الحارث النخعي. كان شديد البأس, جوادا رئيساً حليماً, فصيحاً شاعراً, شهد وقعة الجمل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما, استشهد سنة 38هـ. انظر: القمي, عباس(ت1359هـ): الكنى والألقاب, منشورات مكتبة الصدر, طهران,(د.ط),(د.ت),ج2,ص28- 32.

وذلك أنه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق, رضوان الله عليه, وعزم الله سبحانه له على قتالهم, جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين, فكان أبو مسيكة الأيادي مع بني حنيفة, وكانوا أشد العرب شوكة.

وكان مالك الأشتر في جيش أبي بكر, رحمه الله, فلما توافقوا برز مالك بين الصفين وصاح: يا أبا مسيكة, فبرز له, فقال: ويحك يا أبا مسيكة بعد الإسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر؟ فقال: إياك عني يامالك إنهم يحرمون الخمر ولا صبر عنها, قال: فهل لك في المبارزة؟ قال: نعم, فالتقيا بالرماح, والتقيا بالسيوف, فضربه أبو مسيكة, فشق رأسه, وشتر عينه, وبتلك الضربة سمي الأشتر".[1]

حيث عاد بنا السارد إلى أحداث سابقة للحدث, الذي أخذ في روايته في قوله:"فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان, وحملهم نفوسهم على الأخطار, إننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود ابن قراجا صاحب حماة ذلك الوقت ... فجاءني رجل من أجنادنا, وفرساننا المعدودين, يقال له: جمعة من بني نمير, وهو يبكي, فقلت له: مالك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء قال: طعنني سَرْهَنك ابن أبي منصور.[2]

قلت: وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون قال: مايكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك, والله أن الموت أسهل علي من أن يطعنني, لكنه استغفلني واغتالني ... فرد رأس فرسه راجعاً, فقلت: إلى أين يا أبا محمود؟ قال: إلى سرهنك, والله لأطعننه أو لأموتن دونه.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص59.

(2) لم أعثر على ترجمة له في ما توافر لدي من مصادر ومراجع. وقد ورد في كتاب الاعتبار,ص58.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فغاب ساعة واشتغلت أنا بما يقابلني, ثم عاد وهو يضحك, فقلت: ما عملت؟ فقال: طعنته والله, ولو لم أطعنه لفاضت روحي."[1]

فترك مستوى القص الأول في قوله:" فمن ذلك ما شاهدته... لفاضت روحي." وعاد يروي أحداثاً ماضية من ماضٍ بعيد, في قوله:" وذكرت بفعل سرهنك... سمي الأشتر", على صورة تذكر أو استرجاع؛ ليجلي مدى المفارقة بين الحدثين, ولينير ماضي الشخصية(الأشتر), فضلا عن إكمال الحكاية الاولى.

ب. **الاسترجاع الداخلي**، وتبدّى بعودة السارد إلى أحداث لاحقة لبداية الأحداث التي أخذ بسردها،وهي استرجاعات قصيرة, تكاد تغطي حدثاً واحدا, كقولة:"فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق"[2].

ثم قطع وتيرة هذا الزمن, باستخدام الفعل الماضي, في قوله:" ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر[3], ثم أستحضر بعض ماجرى له في دمشق, وما شاهده فيها, يقول:" ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي, لعنه الله, لما وصل –الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج, وقصد دمشق, فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم, وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي, والشيخ الزاهد عبدالرحمن الحلحولي, رحمهم الله, وكانا من خيار المسلمين[4].

فلما قاربوهم, قال الفقيه لعبدالرحمن: أمّا هؤلاء الروم؟ قال: بلى! قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله تعالى, فتقدما فقاتلا حتى قتلا, رحمهما الله, في مكان واحد"[5].

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص58 –59.
(2) المصدر نفسه، ص27.
(3) المصدر نفسه، ص28.
([4]) لم أعثر على ترجمة لهم في ما توافر لدي من مصادر ومراجع, وقد وردوا في كتاب الاعتبار, ص117.
(5) المصدر نفسه، ص117.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقد كان الاسترجاع – هنا – لإضاءة الأحداث وتنويرها, وتذكير بأحداث وقعت, كما أضاء جوانب حيوات الشخصيات التي سرد أحداثها.

هـ- الشخصيات السردية

تعد الشخصية عنصراً مهماً في بناء الحدث، إذ لا يمكن أن نتصور حدثاً بلا شخصية، فهي "العنصر الذي يميز هذا النص عن ذاك"[1]، وتنبع أهميتها من "الوظائف العامة التي تقوم بها من خلال شبكة علاقات مركبة عمادها المكان والفعل, والارتباط بالآخرين"[2].

ويقدم فيليب هامون (Philippe hamon) مدلول الشخصية في صور ثلاثية، ما يهمنا منها: شخصيات مرجعية، وهي شخصيات لها سندها المرجعي المعرفي، وحددها في الشخصيات التاريخية، والأسطورية والمجازية والاجتماعية[3] والتاريخية هي موضوع دراستنا، وتعبر الشخصية التاريخية عن معنى ثابت وجاهز، تفرضه ثقافة ما.

فعلى سبيل المثال: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهم – كل واحد منهم قائد وسياسي وإمام.

الشخصية الرئيسة في "كتاب الاعتبار"، هي السارد (أسامة بن منقذ)، باستثناء بعض الحكايات التي كان فيها السارد مروياً له، ولا سيما في الأخبار التي رواها لبعض الصالحين[4].

---

(1) بنكراد، سعيد: سيميولوجية الشخصية السردية، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 2003، ص10.

(2)رولان، بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1993، ص 72.

(3) انظر: منصوري، إدريس: أسلوب الرواية مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق لنجيب محفوظ، عالم الكتب الحديث، إربد، 2000، ص 316.

(4) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 187- 198.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول:" وانقطعت يوماً عن أصحابي, وتحتي حصان أبيض, وهو أردأ خيلي, شدَّه الركابي ولا يدري ما يجري, وما معي من السلاح غير سيفي, فحمل عليَّ العرب, فلم أجد ما أدفعهم به, ولا ينجيني منهم حصاني, وقد وصلتني رماحهم. قلت: أثب عن الحصان وأجذب سيفي, وأدفعهم, فجمعت نفسي لأثب, فتتعتع الحصان, فوقعت على حجارة وأرض خشنة, فانقطعت قطعة من جلد رأسي, ودخت حتى مابقيت أدري بما أنا فيه.

فوقف عليَّ منهم قوم, وأنا جالس مكشوف الرأس, غائب الذهن, وسيفي مرمي بجهازه, فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف, وقال: هات الوزن[1], وأنا لا أدري ما يقول, ثم أخذوا حصاني وسيفي.

ورآني الأتراك, فعادوا إليّ, ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفاً, وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي, فسبحان من لايزول ملكه!"[2].

من يتأمل هذا المشهد, يتبين له بجلاء أن الشخصية الرئيسة / المحورية , هي شخصية السارد/ أسامة بن منقذ, قد أضاء بلغته البسيطة, ومستوياتها البنائية الحالة النفسية للسارد, وقد أسر بيد طائفة من العرب, وكيف برر فيها أسره, إذ كان حصانه من أردأ خيله, فلم يمكنه من النجاة منهم, وقد وصلته رماحهم.

كما كشف الحالة الاجتماعية التي كانت عليها بعض القبائل العربية, وهي الاعتماد على النهب والسلب.

---

(1) ادفع لنا ما عندك من مال. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، هامش ص49.
(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي ، ص49.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد استطاع السارد أن يقدم لنا مشاعره وأحاسيسه, دون تكلف أو تصنع, بأسلوب سردي, اتكأ فيه على ضمير المتكلم, مما جعله يقدم صوته مباشرة؛ ليجعل من ذاته مركز الحدث, وليستولي على ذهن المتلقي إلى آخر نهاية الحدث.

أما الشخصيات الثانوية أو الفرعية، فقد تعددت وتنوعت، وكثرت أيضاً في كتابه من شخصيات عربية إسلامية وإفرنجية، تراوحت بين ملوك وقادة وأمراء وفرسان، اتسمت – على العموم – بالقوة والشجاعة والفروسية، وعوامّ: بين حرفيين وفلاحين ورعاة, وخدم وصيادين، اتصفوا بالبساطة والسذاجة, وسوء الحال, وشظف العيش، بالإضافة إلى الشخصيات النسائية الإسلامية اللواتي عرفن بالشجاعة, والبأس والحمية، والشخصيات النسائية الإفرنجية اللائي اتصفن بالجبن والخور وعدم الغيرة.

ويمكن توصيف هذه الشخصيات، بأنها من الشخصيات السكونية التي تتلاءم والحكايات القصيرة، كما يكتفى بدورها في الدلالة على الشخصية الرئيسة/ الدينامية (شخصية أسامة بن منقذ)، وإظهار سجاياها، والتغييرات التي تطرأ عليها، بأبعادها: النفسية، والسياسية، والاجتماعية، وعلاقتها بمحيطها تأثراً وتأثيراً.

يقول:" فلما رأوني قد رددتهم, حملوا علينا, وخرج كمينهم, وأنا على فسحة من أصحابي فرجعت ... أريد أحمي أعقاب أصحابي, فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى, رحمه الله, قد جذب من وراء أصحابي, من قِبليِّ الطريق, وأنا في شماليَّه, فجئناهم, فتسرَّع فارس من خيلهم, يقال له: فارس بن زمام, رجل عربي فارس مشهور, وجازنا يريد الطعن في أصحابنا, فسبقني اليه ابن عمي, فطعنه, ووقع هو وحصانه, وفقع الرمح فقعةً سمعتها أنا وأولئك." [1]

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص60 –61.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ويتبدى من خلال هذا النص السردي أن الشخصيات الثانوية, وهي: الخصوم كما يظهر من قوله:" رددتهم, حملوا علينا", وبعض أصحابه, وعمه ليث الدولة يحيى, وفارس بن زمام.

وعلى الرغم من أن هذه الشخصيات كان لها دور فاعل في صنع الحدث, إلا أنها تتحرك في إطار الشخصية الرئيسة / أسامة بن منقذ, كما أن استحضارها ماهو إلا بمثابة الكشف عن جوانب الشخصية النفسية, وعرض تصرفاتها في بعض المواقف.

ثانياً: أساليب السرد

يعرف الحدث بأنه: "مجموعة وقائع منتظمة ومتناثرة في الزمان"[1]، ويعد من أهم العناصر السردية، فلا يوجد قص دون حدث ما تنتظم فيه جوانب الصراع والمشاعر في وشائج منسجمة ومتناغمة، ويرتبط بعلائق متينة بعناصر السرد، ولا سيما الشخصيات والزمان والمكان التي تساهم في تطور الحدث ونموه.

فالحدث – إذن – اقتران زمن بفعل معين[2]، وتتوالى الأحداث وصولاً إلى نهاية الحكاية. وبناء على ذلك، تكون بناء الحدث/ عناصره في "كتاب الاعتبار" على النحو الآتي:

(1) إبراهيم، عبدالله: البناء الفني لرواية الحرب في العراق (دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص 27.

(2) محمد، زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ص 11.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ- البناء المتتابع

هو؛ البناء الذي يقوم على أساس سرد أحداث القصة من بدايتها إلى نهايتها بصورة متعاقبة، دون انقطاع في سير الأحداث وزمنها[1]، ويسميه الشكلانيون الروس (النظم) [2].

ومن أمثلة البناء المتتابع في "كتاب الاعتبار": "فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر، هجمنا فيها مدينة يُبنى[3]، وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى، وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل، رحمه الله، يستدعيني.

فسرت إلى مصر، وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي، رحمه الله، بعسقلان، فخرج عسكرها إلى قتال غزة فاستشهد، رحمه الله، وكان من علماء المسلمين, وفرسانهم وعبادهم"[4].

اعتمدت الحكاية على سبعة أحداث، وهي:

- إقامة أسامة بن منقذ في عسقلان أربعة أشهر.
- الهجوم على مدينة يُبنى.
- مجيء كتاب الملك العادل.
- مسير أسامة بن منقذ إلى مصر.
- بقاء أخيه عز الدولة بعسقلان.
- خروج عسكرها (عسقلان) إلى قتال غزة.

---

(1) يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص 256.
(2) روابنة، الظاهر: النص والبنية والسياق، اللغة والآداب، مجلة معهد اللغة العربية، جامعة الجزائر، الجزائر، ع 8، متلقى علم النص، 1996، ص65.
(3) بليد قرب الرملة، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 428.
(4) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 40 -41.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- استشهاد أخيه.

وقد تتابعت هذه الأحداث، الحدث تلو الآخر، وفق نسق تصاعدي متسلسل, امتزجت فيها روح الجهاد بالواقع، والفرح بالحزن. بدأت الأحداث من نقطة محددة؛ لتنتهي عندها، ينتظمها الزمن المتسلسل.

كما رسمت حال الشخصية، منذ إقامتها في عسقلان لمحاربة الإفرنج، وما جرى في هذه الواقعة من قتل وأسر ونحو ذلك، ومن ثم سيرها إلى مصر، حيث الملك العادل. فضلاً عن إلقائها (الأحداث) بعض الضوء على الشخصية الثانوية عز الدولة أبي الحسن، كما كشفت عن طبيعة الصراع آنذاك.

ب- البناء المتداخل:

وهو: "عبارة عن تكوّن الحكاية من متتاليتين، إحداهما المتتالية الأم، أو القصة الكبيرة، والثانية متتالية صغيرة تتضمنها القصة الأم"[1]، وهو أسلوب من أساليب الربط بين القصص المشتركة في المعني أو الفكرة.

ومن نماذج ذلك قول أسامة بن منقذ: "وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم, ما لا كنت أظنه بالنساء. فمن ذلك أنني كنت يوماً على باب دار والدي، رحمه الله، وأنا صبي عمري دون العشر سنين، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبياً من خدام الدار، فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني، فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها، فوقعت في بزّه الأيسر.

---

(1) بارت، رولان: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ص 58.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فوقع، وجاءنا غلام كبير والدي يقال له: أسد فوقف عليه، ونظر الجرح، وإذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء، فاصفر وارتعد, ووقع مغشياً عليه، فحُمل إلى داره, وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار، وقد مات المجروح وقبر"[1].

فقد تكوّن الحدث من قصتين؛ القصة الأم التي بدأت بتذكر البطل, وما حدث له مع غلام والده، ثم القصة الصغيرة، وهي ارتعاد فرائص الغلام الكبير من المنظر الذي شاهده، فوقع مغشياً عليه، والقصتان لا تخضعان لتتابع مستقل في الزمان، بل تتداخل زمن الأحداث فيهما.

وقد حدد الارتجاع الفني مكان الذكريات، وهو باب دار والده، والحصن الذي كان يسكن فيه، كما حدد زمن هذه الذكريات، وهو "وأنا صبي عمري دون العشر سنين".

ومما سبق يبدو أن البناء المتداخل, رسم أمكنة الأحداث وأزمتها، كما صور الشخصية المركزية ورسم بعض ملامحها النفسية.

ج- البناء المتوازي:

أي أن تسرد القصة حدثين, بحيث تدور وقائعهما في زمن واحد ومدة واحدة[2]، إذ يقوم هذا النمط من البناء على تزامن الوقائع وتعدد, الأمكنة وتباعدها[3].

ومن الأمثلة على ذلك حديث أسامة بن منقذ عن والده، إذ وصفه بكثرة المباشرة للحرب، وكثرة ما في بدنه من الجراح الهائلة، ومن ذلك أن حربة وقعت في أنف الخوذة، فانطوى وأدمى أنفه، ولم يؤذه.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 163- 164.

(2) انظر: العاني، شجاع مسلم: البناء الفني في الرواية العربية في العراق (بناء السرد)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1994، ص 134.

(3) انظر: يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي,ص65.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول:" وكان الوالد, رحمه الله, كثير المباشرة للحرب, وفي بدنه جراح هائلة, ومات على فراشه. وحضر يوماً القتال, وهو لابس, وعليه خوذة إسلامية...فوقعت الحربة في أنف الخوذة, فانطوى, وأدمى أنفه ولم يؤذه... وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه..., فوقع السهم في الدشن[1], فانكسر فيه, ولم يجرحه. هذا لحسن دفاع الله تعالى."[2]

ثم ينتقل بنا إلى سنة(497هـ)، يوم الأحد تاسع وعشرين شوال؛ ليحدثنا عن الواقعة التي شهدها والده مع سيف الدولة, خلف بن ملاعب الأشهبي في أرض كفر طاب[3].

يقول:" وشهد, رحمه الله, الحرب يوم الأحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين وأربعمائة, مع سيف الدولة, خلف بن ملاعب الأشهبي, صاحب أفامية بأرض كفر طاب, فلبس جوشنه, وعجل الغلام عن طرح كِلَّاب الجوشن من الجانب, فجاءه خشت[4].

فضربة في ذلك الموضع الذي أخل الغلام بستره, فوق بزه الأيسر , خرج الخشت من فوق بِزّة الأيمن. فكانت أسباب السلامة, لما جرت بها المشيئة من العجب, والجرح, لما قدره الله سبحانه من العجب."[5]

فقد تم توزيع الحدث على محورين, توازت فيهما الأفعال من حيث زمن وقوعها, ولكنها تباعدت في أماكنها.

---

(1) الخنجر بالفارسية. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي،هامش ص74.
(2) المصدر نفسه, ص74.
(3) انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 74- 75.
(4) الحربة بالفارسية . انظر: المصدر نفسه, هامش ص75.
(5) المصدر نفسه, ص74 – 75.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد رسم التوازي ملامح الشخصية الخارجية, كما استبطن جوانبها النفسية, وهكذا سارت الأحداث بشكل متوازٍ وفق المحورين مع التركيز على الثاني؛ ليتصل بالمحور الأول في نهاية الحدث.

وينبغي– في نهاية المطاف– أن يجيب الحدث عن أربعة أسئلة، وهي: كيف وقع؛ بمعنى أنه نشأ عن موقف معين، وتطور من نقطة إلى أخرى حتى استكمل وحدته، وأين ومتى وقع؛ أي الفضاء المكاني والزماني الذي حصل فيه هذا الحدث.

والسؤال الرابع، وهو الدافع الذي أدى إلى وقوع الحدث بالكيفية التي وقع فيها، والبحث عن الدافع، يتطلب بدوره التعرف على الشخص الذي فعل الحدث وتأثر به[1].

د– التضمين:

هو "إقحام حكاية داخل حكاية أخرى"[2], وقد تتضمن الحكاية الرئيسة غير حكاية ثانوية, يحيل بعضها إلى بعض.

ومن ذلك قول أسامة بن منقذ:" إن جماعة من الإفرنج الحجاج, حجوا وعادوا إلى رفنية, وكانت ذلك الوقت لهم, وخرجوا منها يريدون أفامية, فتاهوا في الليل, وجاؤوا إلى شيزر, وهي إذ ذاك بغير سور, فدخلوا المدينة, وهم في نحو من سبع مائة, ثمان مائة رجال ونساء وصبيان.

وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان, وفخر الدين أبي كامل شافع, رحمهما الله, ووالدي, رحمه الله, في الحصن.

---

(1) انظر: رشدي، رشاد: فن القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ص 29.

(2) زيتوني, لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية, ص 57.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل, فرأى إفرنجياً, فعاد أخذ سيفه وخرج قتله... وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا, يقال لها: بنت بوز رماط, خرجت مع الناس, اخذت إفرنجياً, ادخلته بيتها.

وخرجت أخذت آخر, أدخلته بيتها, وعادت خرجت, أخذت آخر, فجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج, فأخذت ما كان معهم, وماصلح لها من سلبهم, وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم"[1].

لو نظرنا في هذا النص السردي, لوجدنا الحكاية الرئيسة فيه, قد تضمنت خمس حكايات فرعية, وهي:

- عودة الحجاج الإفرنج إلى رفنية.
- خروجهم من رفنية يريدون أفامية, وتيههم في الليل ومجيؤهم إلى شيزر.
- خروج عسكر شيزر مع عم أسامة بن منقذ, وفخر الدين أبي كامل شافع.
- خروج رجل من المدينة, وقتل أحد الإفرنج.
- أسر المرأة الشيزرية لثلاثة من الإفرنج, وقتلهم .

فهذه الحكايات تؤطرها حكاية مركزية واحدة, وتصب في الغاية أو السبب نفسه, وهو الكشف عن إقدام المرأة الشيزرية المسلمة. فوظيفة التضمين السردي في هذه الحكاية, وظيفة تفسيرية؛ غايتها كشف سلوك بعض الشخصيات.

ويقصد به: توافر عدد من الحكايات يحيل بعضها إلى بعض، مما ينتج تداخل الأزمنة مع تداخل السرد[2]، ولعل خير مثال على ذلك قوله: "فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق... ثم جرت

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص149 –150.
(2) زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص57.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أسباب أوجبت مسيري إلى مصر..." [1]، فهما حكايتان، ولكن تؤطرهما حكاية واحدة مركزية، إذ يصبان في الغاية، أو السبب نفسه، فتنقل أسامة بن منقذ من مكان إلى آخر كان يقتضي إما المشاركة في المصافات والقتال، أو ممارسة هواية الصيد، أو إسداء المشورة والرأي.

ثالثاً: أدوات السرد

يتعلق مصطلح السرد بالمروريات، سواء أكانت شفوية أم كتابية، فهو "حاضر في الأسطورة والخرافة والحكاية والقصة والملحمة، والتاريخ والمأساة والكوميديا، إنه يبدأ مع تاريخ الإنسانية نفسها، فلم يوجد أبداً شعب دون سرود"[2]، و"هو فعل واقعي، أو خيالي ينتج عن الخطاب"[3].

ويتمايز السرد في الأجناس الأدبية المتنوعة من خلال أسلوب المنتج، وطرائقه في تحريك فاعلية اللغة، والإفادة من طاقاتها التعبيرية المختلفة، فـ "السرد هو بث الصورة بوساطة اللغة، وتحويل ذلك إلى إنجاز سردي ... ولا علينا أن يكون هذا العمل السردي خيالياً أو حقيقياً"[4] وفي ضوء هذا الفهم للسرد سيشير الباحث إلى بعض أدواته في "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ.

أ- الوصف:

الوصف، هو: "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[5]، إذ يعكس الصورة الخارجية لحال من الأحوال، أو لهيئة من الهيئات، فيحولها من صورتها المادية في العالم الخارجي إلى

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص28.

(2) رولان، بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ص12.

(3) جينيت، جيرار: عودة إلى خطاب الحكاية، ص 13.

(4) مرتاض، عبدالملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع240، 1998، ص 256.

(5) قدامة بن جعفر (ت 337 هـ): نقد الشعر، تح: محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979، ص130.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

صورة أدبية، قوامها النسيج اللغوي، وجمالها التشكيل الأسلوبي[1]. ففيه يتحدد الحدث، ويأخذ هويته، ويصوره، ويشخصه[2].

يقول عنه جينيت, إنه:" تشخيص للأشياء والشخصيات "[3] ,مما يبعث فيها الحركة والحيوية والحياة, فهو يضطلع بدور مهم, إلى جانب السرد والحوار وغيره من أدوات السرد الأخرى في بناء النص السردي, إذ يهتم بتقديم إطار حيوي للحدث, من خلال تشخيص الأشياء والشخصيات.

لا يمكن للسرد أن يتقدم, دون الوصف, مع أن الوصف, يمكن أن يمضي–أحياناً– دون سرد, أي دون تنام للأحداث. [4]

ويتنوع الوصف في "كتاب الاعتبار" بين الوصف الحسي/المادي, والمعنوي.

ومن أمثلة الوصف المعنوي, قوله في وصف الفتنة التي جرت بمصر, ونصر فيها عباس على جند مصر:" أما الفتنة التي جرت بمصر ونُصر فيها عباس على جند مصر فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله, ما فعل جفت عليه قلوب الناس وأضمروا فيها العداوة والبغضاء".[5]

يحتوي هذا النص على مجموعة من العبارات, والجمل السردية, التي تمتاز بوفرة الأفعال الماضية التي تتلاءم والحدث السردي:(جرت,نُصر,فعل, رحم, جفت) وهي –بطبيعة الحال–أفعال

---

(1) مرتاض، عبدالملك: في نظرية الرواية، ص 258.

(2) السعدون، نبهان حسون: الوصف في رواية الإعصار والمئذنة لعماد الدين خليل (دراسة تحليلية)، دراسات موصلية، الموصل، ع 13، جب 1427 هـ، تموز 2007، ص 107.

(3) انظر :لحمداني,حميد:بنية النص السردية,المركز الثقافي العربي,بيروت ,1993,ص87.

(4)انظر: الشمالي,"محمد فتحي"تضال: الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية" زياد قاسم أنموذجاً", دراسات, العلوم الإنسانية والاجتماعية,مج 33,ع1 , 2006,ص2.

(5)ابن منقذ,أسامة: الاعتبار,تح:السامرائي,ص45.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

صادرة عن سارد واحد, بمعنى أنها تخلو من تنوع الأصوات, وقد وظفت لخدمة النص, ونمو أحداثه وتطورها.

فهي تقنية زمنية, استخدمها الكاتب لتعطيل تسارع الأحداث, ليتسنى له تأسيس فضاء للحدث, من خلال تأثيث المكان بالأشياء والشخوص. [1]

أما إذا ما نظرنا إلى الوصف من ناحية وظائفه, فإننا نجدها تتمثل في بعدين؛ الأول: بعد زمني, الغاية منه إبطاء وتيرة السرد, أو حتى تعطيله كلياً. فورود الوصف في القص, يكون على حساب التتابع الزمني في سرد الأحداث. [2]

إذ هو أشبه بعملية استطراد واسعة, ينهد بها الخطاب السردي, ويتوسع على حسب الزمن الحقيقي للحدث السردي, فيتفوق زمن القص على زمن الحكاية, وعندها يكون التعطيل لوتيرة السرد, فيخصص الزمن الحكائي لخدمة النص المكتوب , وذلك لغايات البناء الفني. [3]

والنصوص التي أوردناها, تمثل هذا التوجه, بما فيها من شخوص وأشياء, تقاطعت مع السرد.

أما البعد الثاني: فهو البعد اللغوي/ الوظيفة التفسيرية,بمعنى أن الوصف, يلقي مزيداً من الضوء على مكونات وعناصر الحدث السردي, فيجلي أبعادها, البرانيّة والجوانيّة, مما يتيح للمتلقي الوقوف على صفات وخصائص الشخوص وغيرها, وربما كشف بإرهاصاته عن الحاله النفسية المسيطرة على بعض الشخوص التي ستلعب دورا ما في الأحداث القابلة

---

(1) انظر: الشمالي:الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية,ص2.

(2) انظر: المصدر نفسه, ص3.

(3) انظر: لحمداني,حميد: بنية النص السردي,ص80.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن أمثلة الوصف، وصف أسامة بن منقذ حصن الخربة، يقول: "... حصن الخربة...[1]. وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه – يُطلع إليه بسلّم خشب، ثم يرفع السلم، فلا يبقى إليها طريق"[2].

يحوي هذا النص الوصفي سيلاً من الجمل السردية التي كثرت أفعالها خدمة للنص، ونمو الحدث وتطوره، وإن خلت من تعدد الأصوات، بمعنى أنها صادرة عن سارد واحد.

ومن هذه الأمثلة أيضاً، وصفه الخيل الصبور في ساحة المعركة، يقول: "وعلى ذكر الخيل، ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار، فمن ذلك أنه كان في جندنا رجل كردي، يقال له: كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير، رحمه الله، وله حصان أدهم أصم مثل الجمل.

فالتقى هو وفارس من الإفرنج، فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القلادة، فمالت رقبته من شدة الطعنة، وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان، فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة، ولا فارسه..." [3].

حوى النص الوصفي عدة أفعال تدل على صبر الخيل على جراحها في ميدان القتال: مالت رقبته، خرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان، وما تزعزع الحصان، وأفعال عدة تشير إلى شجاعة الفارس ورباطة جأشه: التقى هو وفارس، فضربت فخذ كامل، وخرجت من الجانب الآخر، وما تزعزع ... ولا فارسه. فاقتران الوصف بالسرد له تأثير مباشر في بناء الشخصية، كما له أثر غير مباشر في تطور الحدث[4].

---

(1) حصن قريب من حماة. انظر: ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، هامش ص 101.

(2) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص101.

(3) المصدر نفسه، ص 119– 120.

(4) انظر: جينيت، جيرار: السرد والوصف، تر: مهند يونس، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع2، 1992، ص 52.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وينصب الوصف على الخارج، أي وصف ما هو مكاني، أو شيئي، أو مظهري من خارجه كما هو المثالين السابقين، وينصب كذلك على الداخل، فيستبطن دواخل الشخصيات ومشاعرها وتصرفاتها، ومن ذلك وصفه جانباً من جهل الإفرنج، وعدم حضور عقولهم في بعض الأحيان: "ورأيت ... وإن لم يكن في الحرب، وقد عسكر الإفرنج على بانياس في جمع كثير، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنسية يُصلُّون فيها، يتولى خدمتها شيخ، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش.

فكثرت البراغيث، فوقع لذلك الشيخ أن يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث، فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها، وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً"[1].

وهذا وصف دال على الانفعال الداخلي، يتيح للسارد أن يسبر الأغوار الداخلية للشخصيات.

ب-الحوار:

هو:" تناقش مجموعة من الشخصيات داخل إطار زمني معين, ويكون هذا الحوار خارجاً على ألسنة الشخصيات, دون انقطاع ,ويكون الموضوع الرئيس في الحوار قابلاً للتبديل والتغير".[2]

ومن مواصفاته: توافر غير شخص, و إطار زمني معين, و قابلية الموضوع للتبديل والتغير, هي التي تشكل الحوار" الذي هو نمط سردي, يدور في فلك الخطاب, الذي يتميز عنه بأشكال كثيرة.

---

(1) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 108.

(2) الرقيق, عبدالوهاب:في السرد دراسة تطبيقية, دار محمد علي المحامي,تونس,1998,ص65.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والحوار هو ذلك الكلام الذي يصدر من قبل الشخصيات, فتنشأ الأحداث داخل السرد بعيداً عن السارد".[1] ويأتي الاهتمام بالحوار من خلال المعنى والدلالة [2].

ويظهر الحوار في "كتاب الاعتبار" جلياً, وقد استخدمه أسامة بن منقذ بصورة واعية, ووفق ما تقتضيه المواقف. يقول:" ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور, فجلست في خلوة فيها. فقال لي بعض غلماني: في الحمام معنا امرأة . فلما خرجت جلست على المصاطب, وإذا التي كانت قد خرجت وهي مقابلي, لبست ثيابها, وهي واقفه مع أبيها, ولم أتحقق أنها امرأة.

فقلت لواحد من أصحابي: بالله أبصر هذه امرأة هي؟ وأنا أقصد أن يسأل عنها, فمضى, وأنا أراه رفع ذيلها وتطلع فيها. فلتفت إليَّ أبوها, وقال: هذه ابنتي ماتت أمها, ومالها من يغسل رأسها, فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها! قلت:جيدٌ ما عملت, هذا لك فيه ثواب. [3]

وقد كشف الحوار في هذا النص الحكائي –على بساطته– بعض عادات الإفرنج, ولاسيما من لم يتحضروا منهم بعد, ومن كان منهم حديث عهد باتصاله بالمسلمين أثناء فترة الحروب الصليبية, ومن ذلك آداب دخول الحمام, واختلاط الذكور بالإناث, وانكشاف المرأة على محارمها, وعلى غيرهم, وربما يكون ذلك من قلة الغيرة التي اتصف بها غالبهم.

ويظهر الحوار مدى المستوى الثقافي والمعرفي لدى المتحاورين, ويؤكد مستوى خبراتهم ومعرفتهم للناس والأشياء.

---

(1)جنيت, جيرار: مدخل لجامع النص,تر:عبدالرحمن أيوب, دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد (د.ط), (د.ت), ص79.

(2) انظر: يقطين, سعيد: الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, 1997, ص224.

(3) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار,تح:السامرائي,ص156.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك الحوار الذي جرى بين أسامة بن منقذ, وأحد ملوك الإفرنج.يقول أسامة "ولقد قال لي الملك: يا فلان, وحق ديني! لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً. قلت: الله يُفرح الملك بماذا فرحت؟ قال: قالوا لي إنك فارس عظيم, وماكنت أعتقد أنك فارس. قلت: يامولاي,أنا فارس من جنسي وقومي, وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم." [1]

ويكشف هذا النص السردي عن طبيعة كلا المتحاورين, والمقياس الذي قاسا به الفروسية, فالفارس لدى الإفرنج الطويل الدقيق, فضلاً عما سوى ذلك من مقومات الفروسية. وعندما لم ير الملك أسامة بن منقذ على هذه الصورة ,أي ليس دقيقاً ولا طويلاً ,فظن أنه غير فارس.

وجواب أسامة لملك الإفرنج ,يدل على أن الفارس العربي ليس شرطاً أن يكون دقيقاً طويلاً.

ويقدم الحوار للسرد الكثير من الوظائف, لعل من أهمها:

1- التقليل من رتابة السرد [2], فتناوب المتحاورين في تبادل الأراء والأفكار, يحد من سورة الملك والرتابة اللذين قد يذهبان بمتعة التشوق, وبالتالي يحولان بين المتلقي, ومتابعة السرد.

2- الوظيفة الوصفية. [3]

وبذلك تضع المتلقي بطريقة مباشرة أمام الفكرة التي يكشفها الحوار, ففي النص الحواري السابق بين الملك وأسامة بن منقذ, يدرك المتلقي مدى إعجاب الملك بالفارس وفرحه به, سواء أكان عربياً أم إفرنجياً.

---

(1) ابن منقذ,أسامة: الاعتبار,تح:السامرائي, ص88.

(2) انظر: جينيت, جيرار: مدخل لجامع النص, ص22.

(3) انظر: المصدر نفسه, ص24.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذا علاوة على أنه سبر أعماق الشخصيتين المتحاورتين, وموقفهما من الفروسية, وما هو الفارس الحقيقي من وجهه نظر كل منهما.

ج- التبئير والمُتبئر:

1-التبئير:

يقول عنه جيرالد يرنس, إنه" المنظور الذي من خلاله تعرض الوقائع والمواقف المسرودة, الوضع التصوري, أو الإدراكي الذي يتم وفقاً له التعبير عنها"[1].

في حين يرى جنيت, أنه" تقييد للعقل؛ أي في الواقع انتقاء الخبر السردي بالقياس إلى ماكان التقاليد تدعو إليه (علماً كلياً), وهو مصطلح عبثي في التخيل الخاص, فالمؤلف ليس لديه مايفعله, مادام يخلق كل شيء"[2].

2-المُتبئر:

الأداة التي يتم من خلالها تقديم السرد, من خلال فهمها للأحداث, ورؤيتها الحسية الخاصة[3], ولا يمكن أن تنطبق عملية التبئير,إلا على الشخص الذي يبئر الحكاية, وهو السارد, أو بدقة أكثر المؤلف نفسه, الذي يفوّض , أو لايفوِّض للسارد قدرته على التبئير, أو عدم التبئير.[4]

---

(1) برنس, جيرالد: المصطلح السردي,ص87.

(2) جينيت, جيرار:عودة إلى خطاب الحكاية, ص97.

(3) انظر:بكر,أيمن:السرد في مقامات الهمذاني,ص65.

(4) انظر: جينيت ,جيرار:عودة إلى خطاب الحكاية,ص96.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمبئر الأساس في "كتاب الاعتبار" هو أسامة بن منقذ, فالشخصية هنا؛ أي أسامة بن منقذ على حد تعبير جنيت لاترى, وإنما تُرى. [1]

فشخصية أسامة بن منقذ, ترى جميع الشخصيات في "كتاب الاعتبار", وباستطاعتها أن تبئر كل الشخصيات التي توافرت في هذا الكتاب, وتكاد تكون شخصيتا أبيه, عمه أبي العساكر الأكثر ارتباطاً بشخصية المؤلف, وقد استطاع أن يقدم, من خلال الأحداث التي سردها , والمتعلقة بهما, وجهه نظره, هو, أنه العالم بكل الأحوال والحيثيات التي جرت في هذا الكتاب.

يقول أسامة بن منقذ:"فأما التغرير في الإقدام, فما هو للزهد في الحياة, وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالإقدام ووسم بسمة الشجاعة, وحضر القتال طالبته همته بفعل مايذكر به وما يعجز عنه سواه, وخافت نفسه الموت, وركوب الخطر, فتكاد تغلبه, وتصده عما يريد يفعله حتى يضطرها ويحملها على مكروهها فيعتريه الزَّمع[2] , فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه."[3]

يرسم أسامة بن منقذ/المبئر من خلال النص السابق صورة التغرير في الإقدام, ليس سببه الزهد في الحياة, وإنما سببه, أن الرجل إذا عرف بالإقدام, وحضر القتال,طالبته همته بما يعجز عنه سواه, وعند ذلك يعتريه الخوف والدَّهش من الموت وركوب الخطر, فيحملها على ما تكره,فإذا دخل في حرب بطل روعه, وسكن قلبه.

يحاول المبئر– أيضاً– أن يلفت أنظارنا إلى ضريبة الإقدام والشجاعة, وهي الشعور بالخوف والدهشة في بداية الأمر. ثم يعقبه الطمأنينة, وسكون الروع عند التقاء الصوارم.

---

(1) انظر: جينيت ,جيرار:عودة إلى خطاب الحكاية, ص95.

(2) الزَّمع: الدهش والخوف.انظر:ابن منظور: لسان العرب, مادة (زمع).

(3) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص173.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما يحاول أن يقدم –كذلك وجهة نظره في مثل هذه القضايا بطريقة غير مباشرة, وهي أن الخوف من الموت, وركوب الأخطار, والتعرض للمهالك, لايقدم أجلاً, ولا يؤخره, فالآجال والأعمار موقوتة.

أما الشعور بالزَّمع وتغير اللون لحظة اللقاء, فهذا أمر عادي, يعتري حتى الشجعان والأبطال, إذ لا يسلم منه أحد مهما أوتي من البأس والشدة.

د- الخطاب السردي:

يمثل الخطاب السردي مركزاً رئيساً في أي عمل سردي, فهو عنصر مهم من عناصره, فهو "الطريقة التي نقدم بها المادة الحكائية ...[و] قد تكون المادة الحكائية واحدة, لكن مايتغير هو الخطاب في محاولته كتابتها ونظمها".[1]

فكل حكي يقوم على مكونين أساسيين, هما: القصة, والخطاب, ومن ثم فك رموز هذا الخطاب[2].

وسيعرض الباحث – هنا- لعنصرين من عناصر الخطاب السردي, استكمالاً للعناصر الأخرى التي عرضها؛ كالفضاء الزمني والمكاني وغيره.

---

(1) يقطين, سعيد:تحليل الخطاب الروائي, المركز الثقافي العربي,الدار البيضاء,1989,ص22.

(2) انظر: حني, عبداللطيف: الرؤية الجمالية للخطاب السردي المغاربي رواية "مدينة الرياح"للكاتب الموريتاني موسى ولد إبنو" أنوذجاً " مجلة مخبر تحليل الخطاب, جامعة مولود معمري تيزي وزو, منشورات دار الأمل للطباعة والتوزيع, مدوحة,تيزي وزو,ع5, 2009 ,ص195.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أولا: بوابة الخطاب(العنوان)/"كتاب الاعتبار".

يعد العنوان العتبة الأولى للنص التي يلج من خلالها المتلقي إلى عالمه؛ للوقوف على خباياه, ومعرفة أسراره, فهو يمثل" واجهة علامية, تأخذ شكل(الجملة المفتاح), تمارس على القارئ سلطة أدبية وفكرية, فهو يمثل تلك العتبة النصية التي يعمل القارئ على افتكاك بنيتها اللغوية والدلالية, باعتبارها الجملة المفتاح للنص"[1].

كما أنه أول مفتاح إجرائي تفتتح به مغاليف النص؛ كونه علامة سيميوطيقية, تضمن لنا تفكيك النص, وضبط انسجامة, فهو المحور الذي يتوالد ويتنامى, ويعيد إنتاج نفسه"[2].

والاسم الذي يعرف به الكتاب, وتذيع شهرته بين الناس, فضلا عما ينضوي تحته من دلالات وإيحاءات, يَعْبر من خلالها المتلقي إلى فضاءات النص المتنوعة, وتمنحه "إضاءة من نوع خاص... تضمن له تأويل النص, وفق وظائفه الإيحائية المختلفة التي تكون وفق مستويين أساسيين,هما: مستوى القراءة الظاهرة التي تحتمها قراءة المستويات المعجمية والتركيبية, ومستوى القراءة المعنوية العميقة التي تحتمها القراءة التفسيرية والتأويلية للنص".[3]

وعندما يقف المتلقي عند عنوان هذا الكتاب(الاعتبار), الذي جاء من مقطع واحد, معرف بـ(ال) التعريف, تتفتق له دلالات متعددة , إن على المستوى المعجمي, أو على المستوى الدلالي.

أما على صعيد المستوى المعجمي, فترتد لفظة (الاعتبار) الى الجذر اللغوي الثلاثي(عبر), نقول: عَبَر الرؤيا, يعبرها عبراً وعِبارة, وعَبّرها:فسرها, وأخبر بما يؤول إليه أمرها, والعابر الذي ينظر

---

(1) صدوق, نور الدين: البداية في النص الروائي,دار الحوار,اللاذقية,1994,ص39.
(2) مفتاح, محمد: دينامية النص(تنظير وإنجاز),المركز الثقافي العربي,الدار البيضاء, 1987, ص72.
(3) الكردي,عبدالرحيم:السرد في الرواية العربية المعاصرة,دار الثقافة, القاهرة,1992,ص52.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في الكتاب, حتى يقع فهمه عليه, والمُعتَبِر الذي يستدل بالشيء على الشيء, والعِبْرة: العجب, واعتبر منه: تعجب, والعِبرُ: جمع عِبْرَة, وهي كالموعظة, مما يتعظ به الإنسان, ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره, والعِبرة: الاعتبار بما مضى, وقيل: العبرة الاسم من الاعتبار.

والعَبَرة: الدمعة, وقيل أن ينهمل الدمع ولا يسمع بكاء, وقيل: هي تردد البكاء في الصدر, والجمع عَبرات, وحكى الأزهري عن أبي زيد: عَبِر الرجل يَعَبُر عَبَراً إذا حزن. [1]

نلاحظ أن هذه المادة, تدور حول الاتعاظ, أو الحزن, وقد تبين لنا من خلال النصوص التي وردت فيها هذه المادة أن المقصود بها الموعظة, والاعتبار بما مضى؛ لتحقيق الفائدة والمنفعة من الحوادث والمصافات والقصص التي تحدث عنها أسامة بن منقذ.

يقول في قتل رضوان من قبل الحرس الفاطمي:"... قتلوه وتقاسم أهل مصر لحمه, يأكلونه؛ ليكونوا شجعاناً . فقد كان فيه معتبر وواعظ, لولا نفاذ المشيئة".[2]

ويقول–أيضا– في وقعة مع إسباسلار, وقد قتلوا من جنده خلقاً كثيراً , وذلك في كفر طاب:" فرأيت منهم عبرة عظيمة. فتركناها, وعدنا إلى شيزر مع الوالد, رحمه الله, وقد أُخذ كل ما كان معه من الخيام والجمال والبغال...وتفرق العسكر".[3]

وأما على صعيد المستوى الدلالي, فقد يكون الاعتبار, بمعنى التأويل والتفسير, وهذا مقصد متروك للمتلقي, إذ ينبغي قراءة الأحداث التي أنطوى عليها الكتاب, ضمن شروكها التاريخية والثقافية وإعادة قراءتها بما ينسجم مع واقعنا المليء بالصراعات والتناقضات.

---

(1) انظر: ابن منظور:لسان العرب,مادة (عبر).
(2) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح :السامرائي, ص55 –56.
(3) المصدر نفسه, ص98.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد يكون –كذلك–بمعنى العَجب, إذ وردت هذه اللفظة/ العجب غير مرة في كتابه, ولا سيما عندما يتحدث عن الأسود والسباع, أو عن عجائب طب الإفرنج. يقول أسامة بن منقذ متعجباً من أمر سبع:" ودخل السَّباع , ومعه السُّبع , فساعة رآه الخروف, وقد أرسله السباع من السلسلة التي في رقبته, حمل عليه فنطحه,فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة, والخروف خلفه يطرده وينطحه, ونحن قد غلبنا الضحك عليه, فقال الأمير معين الدين,رحمه الله,: ذا سبع منحوس اخرجوه اذبحوه واسلخوه, وهاتوا جلده, فذبحوه وسلخوه وأُعتق ذلك الخروف من الذبح".[1]

أما عن عجائب طب الافرنج, يقول: " ومن عجائب طبهم"أن طبيباً إفرنجياً, جاءهم ليعالج رِجل أحد الفرسان, وقد أصيب بدمل, فقال:"للفارس أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة.

قال احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً, فحضر الفارس والفأس, وأنا حاضر , فحط ساقه على قرمة خشب, وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربةً واحدة واقطعها , فضربه, وأنا أراه, ضربة واحدة ما انقطعت, ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق, ومات من ساعته".[2]

وقد لخص أسامة بن منقذ العبرة من الوقائع والمصافات والحروب مع الافرنج, سواء أكان قائداً, أم جندياً في هذه المعارك, بقوله:" ركوب الأخطار , لاينقص الأعمار".[3] وكقوله أيضاً:" إن ركوب أخطار الحروب, لا ينقص مدة الأجل المكتوب".[4]

---

(1) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح :السامرائي, ص129

(2) المصدر نفسه, ص 152

(3) المصدر نفسه, ص209.

(4) المصدر نفسه, ص209.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وخلاصة الأمر, فإن عنوان الكتاب– إلى حد ما– استفزازي, وإغوائي, يولد في المتلقي فضولاً – من نوع ما–إلى معرفة بواطن النصوص, والوقوف على أسرارها, واكتشاف معانيها الفكرية والثقافية والأدبية والجمالية, علاوة على أن الإنسان –بصورة عامة– مسكون بالعبرة والاتعاظ, كما أن الذاكرة الجمعية, مغرمة في أشكال التأسي, والقدوة الحسنة.

ثانياً: صياغة الخطاب السردي في "كتاب الاعتبار"

تعد صياغة الخطاب من العناصر الأساسية للخطاب السردي, كونها" الطريقة التي بواسطتها[بوساطتها] يقدم لنا الراوي القصة"[1], ولما لها من دور مهم في تشكيل الأنساق البنائية للخطاب السردي, وأيضاً في الكشف عن أنماطه.

يقوم الخطاب السردي على نمطين أساسيين, هما السرد, والعرض المرتبطين بالقصة والخطاب والسارد. [2]

تتعدد الصيغ الخطابية في " كتاب الاعتبار" , وبالتالي تتعدد خطاباته, وتتجلى هذه الصيغ في أشكال ثلاثة, وهي: الخطاب المسرود, والخطاب المعروض, والخطاب المنقول.

أما الخطاب المسرود, فهو الخطاب الذي يرسله المتكلم, وهو على مسافة مما يقول, ويتحدث إلى مروي له, سواء أكان هذا المتلقي (شخصية) مباشرة أم إلى المروي له في الخطاب الروائي بكامله. [3]

---

(1) بحراوي, حسن: بنية الشكل الروائي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء,1990, ص125.
(2) انظر: حني, عبداللطيف: الرؤية الجمالية للخطاب السردي المغاربي,ص207 ,208.
(3) انظر: يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي, ص197.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويمثل هذا النمط حيزاً كبيراً من الكتاب, ويتجلى عندما يتحدث المتكلم عن ذاته, وإليها عن أشياء تمت في الماضي, أي أن هناك مسافة بينه وبين مايتحدث عنه.[1]

ويمكن أن نمثل لذلك بقول أسامة بن منقذ:" وجلست في صفة في دهليز داري, فدخل عليَّ شاب سلم وجلس, فرأيته حسن الحديث حسن المحاضرة. هو يتحدث وإنسان استدعاه, فمضى معه, ونفذت خلفه غلاماً يبصر لماذا استدعي, وكنت بالقرب من دار العادل.

فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبته, فقتل. وعاد الغلام, وقد استخبر عن ذنبه, فقيل له: كان يُزوِّر التواقيع".[2]

فهذه الصيغة, تؤطر الحدث, وتضبطه, وتؤكد التعالقات والتقاطعات بين الشخصية التي تروي الحدث, والذات الكاتبة.

غير أن هذه الصيغة من الخطاب/ الخطاب المسرود الذاتي, يتداخل مع آخر مسرود غير مباشر, تعمد الذات الساردة فيه إلى صياغته باستخدام ضمير الغائب, ويظهر ذلك في قوله:" فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل. فلما قمت للرحيل, جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل, ودار يريد يشده بالسموط[3]. فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج.

فركبت حصاني, وقد قدمه الركابي, وقلت لواحد من غلماني: اركب, اركب. وركضت خلف البغل, فما لحقته, وهو كأنه حمار وحش, وحصاني قد أعيا من الطريق.

---

(1) انظر: يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي,, ص198.

(2) ابن منقذ , أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص33.

(3) السموط:جمع سمط ,وهو السير يعلق من السرج. انظر: ابن منظور: لسان العرب,مادة(سمط).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولحقني الغلام, فقلت: اتبع البغل كذا. فمضى وقال: والله يامولاي ما رأيت البغل ولقيت هذا الخرج قد شلته. فقلت: الخرج كنت أطلب, والبغل أهون مفقود".[1]

أما صياغة الخطاب المعروض, فقوامها ثلاثة أنماط من الخطاب, أولها: صياغة الخطاب المعروض المباشرة, وهي التي نجد فيها المتكلم يتكلم مباشرة إلى متلق مباشر, ويتبادلان الصدام بينهما دون تدخل السارد".[2]

ويبدو ذلك في قوله:" ... وأصبح عباس, جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس, فجلس في خزنة في مجلس الوزارة, كأنة ينتظر جلوس الظافر للسلام. فلما جاوز وقت جلوسه, استدعى زمام القصر وقال:"ما لمولانا ما جلس للسلام؟ فتبلد الزمام في الجواب. فصاح عليه وقال: مالك لا تجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين هو, قال: مثل مولانا يضيع؟ ارجع فاكشف الحال!!. فمضى ورجع وقال: ما وجدنا مولانا, فقال عباس : ما يبقى الناس بلا خليفة, ادخل إلى الموالي إخوته, يخرج منهم واحد نبايعه.

فمضى وعاد وقال: الموالي يقولون لك: نحن مالنا في الأمر شيء, والده عزله عنا, وجعله في الظافر, والأمر لولده بعده, قال: اخرجوه حتى نبايعه".[3]

والصياغة الثانية, هي: صيغة الخطاب المعروض غير المباشر, وهي" أقل مباشرة من المعروض المباشر؛ لأننا نجد فيها مصاحبات الخطاب المعروض التي تظهر لنا من خلال تداخلات

---

(1) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص37.

(2) يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي, ص197.

(3) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص43 –44.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السارد, قبل العرض, أو من خلاله, أو بعده, وفيه نجد المتكلم يتحدث إلى أخر, والسارد, من خلال تداخلاته يوشر للمتلقي غير المباشر".[1]

ويظهر ذلك في قوله:" حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم, وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان, أوقفوهما في رأس الميدان, وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين, ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها, والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن, فأخذت ذلك الخنزير في سبقها". [2]

ونجد في الأخيرة, صيغة الخطاب المعروض الذاتي, وهي:" نظير صيغة الخطاب المسرود الذاتي, إلا أن هناك فروقات بينهما, تتم على صعيد الزمان, فإذا كنا في المسرود الذاتي أمام متكلم يحاور ذاته عن أشياء تمت في الماضي, فإننا هنا نجده يتحدث إلى ذاته عن فعل يعيشه وقت إنجاز الكلام".[3]

ومثال ذلك قوله:"فجاءني فارس منهم يركض, وقال: قد جاء الإفرنج, فسرت إلى أصحابنا, وقد وصلهم أوائل الفرنج, وهم, لعنهم الله, أكبر الناس احترازاً في الحرب, فصعدوا على رابية وقفوا عليها, وصعدنا نحن على رابية مقابلهم, وبين الرابيتين فضاء: أصحابنا المنقطعون وأصحاب

(1) يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي, ص197.
(2) ابن منقذ , أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص157.
(3) يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي, ص197.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجنائب عبور تحتهم, لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة, ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين".[1]

وأما النمط الثالث من صيغة الخطاب السردي , فهو الخطاب المنقول, الذي يتجلى بصيغتين" تتداخلان, وصيغة الخطابات السابقة المسرود منها والمعروضة على حد سواء, وهما صيغة الخطاب المنقول المباشر,وصيغة الخطاب المنقول غير المباشر, ففي الأولى: يختلط سرد السارد, بسرد الشخصية ؛لأن المتكلم لا يقوم فقط بإخبار متلقيه بشيء عن طريق السرد, أو العرض, ولكنه ينقل كلام غيره سرداً , أوعرضاً ومن خلال هذا النمط نصبح أمام متكلم ثانٍ, ينقل عن متكلم أول".[2]

ويتجلى ذلك في "كتاب الاعتبار" , ولا سيما في أخبار الصالحين, ومن ذلك قوله:" حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم خطيب مدينة أسعرد[3] بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مئة قال: حدثني أبو الفرج البغدادي قال: شهدت مجلس الشيخ الإمام أبي عبدالله محمد الطبري ببغداد وحضرته امرأة فقالت: يا سيدي إنك كنت ممن شهد في صداقي, وقد فقدت كتاب المهر وأسألك أن تتفضل عليَّ تقيم الشهادة بمجلس الحكم, فقال: ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة, فوقفت المرأة, وهي تظن أنه يمزح بقوله, فقال: لا تطيلي, لا أمضي معك إلا أن تأتيني بالحلاوة, فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الإزار قرطاساً,فيه حلاوة يابسة.فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه, فأخذ القرطاس, وفتحه ورمى بالحلاوة

---

(1) ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي,ص40.

(2) يقطين, سعيد: تحليل الخطاب الروائي, ص198.

([3]) قال محقق الكتاب لم يرد لها ذكر في كتب معاجم البلدان.انظر: ابن منقذ, أسامة: الاعتبار, تح:السامرائي, هامش ص185.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس. ونظره فإذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته. فقال:خذي كتاب صداقك, فهذا هو. فاستعظم من حضره ذلك, فقال: كلوا الحلال, وقد فعلتم ذلك وأكثر منه "[1]

وقد تبدى –لنا– مما سبق الحديث عنه, أن صيغ الخطاب المسرود , أثرت الخطاب السردي, وحددت نوعيته, وما تضمنه من خصائص جمالية على صعيد البنية الحكائية.

هـ– السرد الأدبي:

ويتعلق هذا النمط بمستويات اللغة السردية، فالعلاقة بين السرد والتشكيل اللغوي علاقة حميمة، وذلك من خلال اعتماد السرد على الصياغة اللغوية ومستوياتها، كما أن ثمة علاقة بين الصيغ اللغوية المسرودة والسارد[2]. وتنقسم مستويات اللغة في "كتاب الاعتبار" إلى قسمين:

1– أنماط اللغة السردية:

لغة الكتاب ليست أدبية خالصة، وهي ليست عامية أيضاً، كثرت فيها الأخطاء الإملائية، مثل قوله: "جاء إلى الرّحا/ الرّحى"، وقوله: "حدثني... مسلم بن قسيم" أي قاسم ....، واستخدام لفظة (الحيط) بدل (الحائط)، بالإضافة إلى الأخطاء النحوية، مثل قوله: "ديواني كل شهر دينارين" (ديناران)، و"فخرج فارسان... فصادفو" (فصادفا).

(1) ابن منقذ , أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص184 –185.

(2) مبروك، مراد عبدالرحمن: آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة "الرواية النوبية نموذجاً"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2000، ص 83.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكذلك استعمال لغة "أكلوني البراغيث", كقوله: "فصبحونا الإفرنج"، "فاقتطعوهم الروم"، وخلو بعض الجمل من حروف التعاقب، مثل قوله: "فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث، رحمه الله، طعنها قتلها"، و"قطعنته وسّطت القنطارية فيه"[1].

و"كثرة التصحيفات والأخطاء، وربما التعابير العامية الواردة في النص لم تكن – كما أظن – من صنع أسامة بن منقذ نفسه، وهو الذي قال فيه العماد الأصفهاني: "وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه". فلعل أحد النساخ كان يملي من النسخة الأصل والآخر يكتب، وكان المملي كثير الخطأ في القراءة، والناسخ يكتب ما يسمع منه"[2].

وتجيء استعانة السارد بضمير المتكلم (التاء المضمومة)؛ لإظهار مكنونات النفس الداخلية, وإظهار مشاعرها وأحاسيسها تجاه المواقف والأشخاص.

ولعل توقف السارد عند ضمير المتكلم, وعدم التنقل بين الضمائر, إلا قليلاً, أضفى على السرد نوع من الملل, وعدم إثارة التشويق.

أما بالنسبة للغة السردية – بصورة عامة – فيلحظ اتكاء السارد على ضمير المتكلم المفرد، مثل: "وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم..."، و"وتقدم إليّ الملك العادل..."، و"فجمعتهم ورأيت بهم من الضرّ..." [3]، وكذلك استخدام صيغ الأفعال الماضية التي تتناسب والسرد التاريخي للأحداث الماضية، مثل: "... ثم إن الإفرنج وقفوا على بُعد ساعة، ثم رجعوا إلى بلادهم، جمعوا لنا، وجاؤونا بالفارس والراجل..." [4].

---

(1) انظر: السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص 22.
(2) السامرائي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص 23.
(3) ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: السامرائي، ص 32، 33، 35.
(4) المصدر نفسه، ص 39.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد لاحظ الباحث كثيراً من الأفعال التي تكررت لدية, مثل: كان, ووقع, وجرى, وبلغ, ورأيتُ, وتقدم, ونزل, ووصل, وأصابا, وشاهدتُ. يقول:" ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر "[1]. ويقول:" فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس"[2]. ويقول:" وبلغ الخبر إلى ابن السَّلَّار, فاستدعاني في الليل".[3]

كما تكررت – عنده – افعال النقل, مثل: حدثني, وحكى لي, ويقول:"ومن ذلك ما حكاه لي العقاب الشاعر"[4]. ويقول:" ومن ذلك ماحدثني به المؤيد الشاعر البغدادي"[5].

وعلى العموم، فإن لغته تمتاز بالبساطة والسهولة والمباشرة، حرصاً منه على إيصال رسالته إلى المتلقي بيسر، بعيداً عن التعقيد والغموض، وتعبر عن حمولاتها المعرفية والدلالية بوضوح، ولا تعتمد على جاذبية الجمل الشعرية، فهي لغة أقرب ما تكون إلى لغة الخطاب اليومي من الأدبي في معظم صيغها؛ مما منحه الحرية في التعبير عن مشاهداته وتجاربه الذاتية، ورصد المصافات والوقعات.

2- استعمال طائفة من الألفاظ الفارسية والتركية واليونانية:

على الرغم من أن أسامة بن منقذ لم يكن يحسن غير العربية، بدليل قوله في غير موضع من كتابه إلى ما يشير إلى ذلك، من مثل: "التفت (رفيقه الغساني) إلى غلام له كلمه بالتركي، ولا أدري ما يقول"، وقوله: "إنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ما ندري ما يقولون"[6].

---

(1) ابن منقذ , أسامة: الاعتبار, تح: السامرائي, ص28.
(2) المصدر نفسه, ص29.
(3) المصدر نفسه, ص31.
(4) المصدر نفسه، ص92.
(5) المصدر نفسه, ص94.
(6) المصدر نفسه, ص 123- 151.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولكن ذلك لم يمنعه من استخدام كثير من هذه الألفاظ، مثل: مُوز بمعنى خف، دشنه: خنجر، يَرَق: سلاح، جوبان: راعٍ...[1]، وهذا يدل على مرونة اللغة واستيعابها لكثير من المفردات الغربية عليها، كما يُعد – أيضاً– رافداً من الروافد التي تغذي لغتنا.

و– سرد الخبر الأدبي

تتمثل الطبيعة السردية للتاريخ، من خلال وجود عناصر مشتركة بين السرد والتاريخ، منها: التكرار السردي؛ أي تفعيل الماضي في قالب جديد، هو السرد. وثمة وجه من أوجه التداخل بين التاريخ والسرد، بمعنى أن ثمة جملة من الترتيبات / الأحداث، تتيح استخراج حكاية من الأحداث؛ لأن الحدث التاريخي ليس مجرد شيء يقع، بل هو مكون سردي[2].

وقد تمكن أسامة بن منقذ في "كتابه الاعتبار" أن يعيد كتابة الأحداث بقالب سردي، توافرت فيه معظم عناصر السرد: من سارد، وحدث، وفضاء: مكاني وزماني وشخصيات، كما أعاد صياغة هذه الأحداث بطريقة فنية تداخل فيها التاريخ والتخيل، مما جعل كتابه ينطوي على دلالات جديدة، كما استدعى كثيراً من الشخصيات التي كان لها الدور الفاعل آنذاك، سواء أكانت شخصيات عربية وإسلامية، أم إفرنجية، ولعل اتكاءه على الذاكرة، أو ما يعرف بتقنية الاسترجاع منح الأحداث التي قدمها مذاقاً عاطفياً خاصاً، تشعر المسلم بالانتشاء بالانتصارات الماضية التي ما زالت خالدة في الذهنية العربية الإسلامية.

---

(1) انظر: حتي، مقدمة كتاب الاعتبار، ص 32– 34.

(2) بلخن، جنات: نظرية السرد التاريخي عند بول ريكو، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2010، ص 37، 47.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وينتقد الكتاب من خلال السارد كثيراً من الجوانب الحضارية والثقافية والعلمية التي كانت سائدة – يومذاك – لدى الإفرنج بكل شفافية ووضوح، ودون تجن. وقد أشار الباحث في الفصل الأول والثاني إلى هذه القضايا بالتفصيل,وهو مايتعلق ببعض العادات الاجتماعية للإفرنج,وجهلهم بالنواحي الطبية , وغير ذلك.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمة:

بعد أن منَّ الله تعالى عليَّ بإتمام هذه الرسالة, فقد خلصتُ إلى عدة نتائج, لعل من أهمها مايلي:

أولاً: تجلى دور أسامة بن منقذ في الناحية السياسية والعسكرية, إذ ترك بصمات جهادية واضحة على امتداد المكان والزمان اللذين تفاعل معهما تفاعلاً ثرياً, فأبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن بلاد الإسلام في الشام, ومصر, وفلسطين.

كما كان له دور جلي في إصلاح ذات البين بين الأمراء والملوك آنذاك, إذ قام بالوساطات والسفارات بينهم لجمع كلمتهم, من أجل الذود عن الديار الإسلامية.

ثانياً: جاءت سيرته الموسومة بـ" كتاب الاعتبار" خير شاهد على فترة من أحرج الفترات الإسلامية, آناذاك, إذ صور مادار فيها من وقائع وحروب بين المسلمين والإفرنج, وماكان يطمح إليه الإفرنج من السيطرة على البلاد العربية والاسلامية.

ثالثاً: أبدى أسامة بن منقذ في "كتاب الاعتبار" جرأة وصراحة بعيدة المدى –إلى حد ما–فاستحضر جوانب الفشل كما استحضر جوانب النجاح, واعترف بلحظات الضعف, كما اعترف بلحظات القوة, دون حرج.

رابعاً: أبرزت سيرته بعض جوانب الحياة الحضارية آنا ذاك؛كالجانب الأخلاقي, والديني, والسياسي والاجتماعي, فجاءت دالة على البيئة التي عاش فيها, ومتناغمة مع الظروف التي طغت عليها سمت القتال والصراع والحرب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

خامساً: جلت سيرته الذاتية بعض النماذج الإنسانية: كالعالم, والفقيه, والزاهد, فرأينا دورها الواضح في الدعوة إلى الجهاد والتضحية. كما جلت دور المرأة, فوجدنا المرأة الشجاعة القوية, والمرأة الناصحة الحكيمة, والمرأة ذات التقوى والصلاح.

سادساً: تبدت شخصية السارد/ أسامة بن منقذ في كتابه "الاعتبار" بصورة واضحة, فكان حضوره في الأحداث الدائرة بشكل رئيس, فهو بطل النص الحكائي على الإطلاق, وقد اتكأ فيه على تقنية التداعي والتذكر والاسترجاع.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المصادر والمراجع:

- القران الكريم

1. إبراهيم، عبدالله: البناء الفني لرواية الحرب في العراق (دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988.
2. ـــــــــــ: السردية العربية،المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992.
3. إبراهيم،السيد: مدخل إلى نظرية القصة: دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة القصة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998.
4. ابن الأثير، أبو الحسن محمد بن محمد الشيباني (ت 630 هـ): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ط)، (د. ت).
5. ابن أبي أصبيعة، أبو العباس, أحمد بن القاسم (ت 668هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
6. ـــــــــــ: الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2002.
7. الأشتر، عبد الكريم: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري (488- 584هـ) (مذكرات أسامة بن منقذ، الحروب الصليبية مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط2، 2003.
8. الأصفهاني، عماد الدين (ت 597هـ): خريدة القصر وجريدة أهل العصر (قسم شعراء الشام)، تح: شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1955.
9. أفاية، نور الدين: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.
10. أنيس، إبراهيم: وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، (د.م)، (د.ط)، (د.ت).
11. إيزر، فولفغانغ: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، تر: حميد لحمداني، والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، (د.ط)، (د.ت).
12. بارت، رولان: التحليل البنيوي للسرد، ضمن كتاب طرائق السرد الأدبي، تر: حسن بحراوي وآخرون، منشورات اتحاد كتّاب المغرب، الرباط، 1992.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

13. باشلار، غاستون: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984.
14. بحراوي, حسن: بنية الشكل الروائي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء,1990.
15. بدر، عبدالمحسن طه: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870–1938)، دار المعارف، القاهرة، 1963.
16. بدوي, أحمد أحمد, وعبدالمجيد,حامد: مقدمة ديوان أسامة بن منقذ, عالم الكتب, القاهرة,(د.ط),(د.ت).
17. برنس، جيرالد: المصطلح السردي (معجم مصطلحات)، تر: عابد خزاندار، مراجعة وتقديم: محمد بريري، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
18. البستاني، بطرس بن بولس (ت 1883م): محيط المحيط: قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1977.
19. بكر، أيمن: السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.
20. البلداوي، عبدالإله علي حسن: كشكول القائد السياسي والعسكري والأمني، مركز عبكرا للدراسات والبحوث، بغداد، 2007.
21. بنكراد، سعيد: سيميولوجية الشخصية السردية، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 2003.
22. تامر، فاضل: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2004.
23. الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (ت 430 هـ): خاص الخاص، شرحه وعلق عليه: مأمون بن يحيى الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
24. الجابري، محمد عابد: حفريات في الذاكرة، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1997.
25. الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 256 هـ): تهذيب الأخلاق، قرأه وعلق عليه: إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث لنشر والتحقيق والتوزيع، طنطا، 1989.
26. أبو جملين، مصطفى: ثنائية (السارد/ المسرود له) في كتاب (في نظرية الرواية)، لـ: عبدالملك مرتاض، قراءة مصطلحية مفهومية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري – جامعة بسكرة، الجزائر.
27. جنيت,جيرا:خطاب الحكاية, تر: محمد معتصم واخرون, المجلس الاعلى للثقافة, القاهرة, ط2 , 1997.
28. ـــــــــــ: عودة إلى خطاب الحكاية، تر: محمد المعتصم، المركز الثقافي، بيروت، 2000.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

29. ـــــــــــــ:مدخل لجامع النص,تر:عبدالرحمن أيوب,دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد(د.ط),(د.ت).
30. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ): رفع الإصر عن قضاء مصر، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.
31. حسن، محمد عبدالغني: التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د.ت).
32. الخطيبي، عبدالكريم: في الكتابة والتجربة، تر: محمد برادة، دار العودة، بيروت، 1980.
33. الخفاجي، أحمد رحيم كريم: المصطلح السردي في النقد الأدبي الحديث، دار صفاء، عمان، 2012.
34. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ): مقدمة ابن خلدون، منشورات دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
35. الخلفات، جمال، وأسعد، بهاء الدين: العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، دار المنارة، عمان، 1983.
36. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت781هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
37. درويش، محمود: ديوانه (لماذا تركت الحصان وحيداً)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1995.
38. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ): جمهرة اللغة، علق عليه ووضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005.
39. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ):العبر في خبر من غبر,تح : محمد السعيد بن بسيوني زغلول,دار الباز, مكه المكرمه, ط1405هـ.
40. ـــــــــــــ: سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996.
41. رشدي، رشاد: فن القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1964.
42. الرقيق, عبدالوهاب:في السرد دراسة تطبيقية, دار محمد علي المحامي,تونس,1998.
43. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية مملكة بيت المقدس – 1100– 1187، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1997.
44. رولان، بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1993.
45. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(ت 1205): تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مراجعة عبدالستار أحمد فراج، مطبعة الكويت، الكويت، 1973.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

46. زركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980.
47. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر (ت 538هـ): أساس البلاغة، تح: عبدالرحيم محمود، دار المعرفة للطباع والنشر، بيروت، 1982.
48. زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، بيروت، 2002.
49. سبط ابن الجوزي،أبو المظفر, يوسف بن يوسف بن قزأوغلي (ت 645هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، منشورات حيدر آباد، الهند،(د.ط),(د.ت).
50. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ): الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، (د. ط)، (د.ت).
51. السرجاني، راغب: قصة الحروب الصليبية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008.
52. سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990.
53. سميل، ربني: فن الحرب عند الصليبين في القرن الثاني عشر (1097 – 1193)، تر: محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1982.
54. سويف، مصطفى: مقدمة في علم النفس الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983.
55. السياب، بدر شاكر: قصائده: (جيكور، الوصية، غريب على الخليج...)، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ط4، 2008.
56. السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت911هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2005.
57. ـــــــــــ: حسن المحاضرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967.
58. شاكر، أحمد محمد: مقدمة لباب الآداب، منشورات مكتبة السنّة، القاهرة، 1935.
59. شاكر، تهاني عبدالفتاح: السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002.
60. أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان (ت665هـ): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: النُّورية والصَّلاحية، وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.
61. الشاوي، عبدالقادر: الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، إفريقيا الشرق، بيروت، 2000.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

62. ابن شداد,محمد بن علي بن إبراهيم(ت684هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،تح:يحيى زكريا عبارة,منشورات وزارة الثقافة السورية,دمشق,1991.
63. ابن شداد، بهاء الدين (ت 632هـ): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفة أو سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994.
64. الشدادي، عبد السلام: ابن خلدون من منظور آخر، تر: محمد الهلالي، وبشري الفكيكي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000.
65. شرف، عبدالعزيز: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1992.
66. الشعراني، عبدالوهاب (ت 973هـ): لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق، مطبعة الباب الحلبي وأخويه، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
67. شوردن، جاك: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب، الكويت، ع 76، 1984.
68. صدوق, نور الدين: البداية في النص الروائي,دار الحوار,اللاذقية,1994.
69. الصفدي، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.
70. الصلابي، علي محمد: الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2008.
71. ـــــــــــ: الدولة الزنكية، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2007.
72. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.
73. ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1956.
74. عاشور، سعيد عبد الفتاح: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 200.
75. العاني، شجاع مسلم: البناء الفني في الرواية العربية في العراق (بناء السرد)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1994.
76. عبادة، عبد الفتاح: سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداته، مطبعة الهلال، والفجالة، 1913.
77. عباس، إحسان: فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1981.
78. عبد الدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1974.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

79. عبيد,إسحاق تاوضروس:روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني قنسطنطين (869–1204م),دار المعارف ,القاهرة,1970.
80. عثمان، إعتدال: إضاءة في النص قراءة في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998.
81. عجوة، علي: العلاقات العامة والصور الذهنية، عالم الكتب، القاهرة، 1983.
82. العدواني، معجب: تشكيل المكان وظلال العتبات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، رمضان, 1423، نوفمبر، 2002.
83. ابن العديم,عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ):بغية الطلب في تاريخ حلب,تح:سهيل زكار,دار الفكر, بيروت,1988.
84. ـــــــــــ: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997.
85. عرجون، صادق إبراهيم: خالد بن الوليد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1981.
86. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن عبد الله (ت571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995.
87. علوان، عبدالله ناصح: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين (523– 589هـ)، دار السلام للتوزيع والنشر والترجمة، (د. ط)، (د.ت).
88. العمد، هاني: دراسات في كتب التراجم والسير، منشورات المؤسسة الصحفية الأردنية، 1981.
89. عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، عالم الكتب،القاهرة,2008.
90. عوض، محمد مؤنس أحمد: الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، دار الشروق، عمان، 1999.
91. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ): فضائح الباطنية، تح: عبدالرحمن بدوي، وزارة الثقافة، القاهرة: 1964.
92. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ): مقاييس اللغة، تح: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
93. فرج، أنور محمد: نظرية الواقعية في العلاقات الدولية: دراسة نقدية مقارنة في ضوء النظريات المعاصرة، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، بغداد، 2007.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

94. قاسم، سيزا: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984.
95. قاسم، قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 149، أيار، 1990.
96. قباني، نزار: ديوانه (أبجدية الياسمين)، منشورات نزار قباني، بيروت، 2008.
97. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (276 هـ): الأنواء في مواسم العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1988.
98. قدامة بن جعفر (ت 337 هـ): نقد الشعر، تح: محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979.
99. القديس أغوسطينوس: اعترافاته، نقلها إلى العربية: الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4، 1991.
100. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت 628 هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د.ت).
101. القصراوي، مها حسن: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 2004.
102. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت 555 هـ): تاريخ دمشق، تح: سهيل: كان، دار حسان للطباعة والنشر، 1983.
103. القمي, عباس(ت1359هـ): الكنى والألقاب, منشورات مكتبة الصدر, طهران,(د.ط),(د.ت).
104. القيسي، فايز: جماليات الخطاب الأدبي في النثر العربي القديم (قراءات في الرؤيا والتشكيل)، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2012.
105. قيطاز، محمد عدنان: أسامة بن منقذ والجديد من أثاره وأشعاره (488- 584هـ، 1095-1188م)، بمناسبة مرور تسعمائة سنة على ولادته، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998.
106. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ): الداء والدواء، تح: محمد أحمد الاصلاحي، دار الفوائد للنشر والتوزيع، (د.م)، (د. ط)، (د. ت).
107. كامو، البير: الإنسان المتمرد، تر: نهاد رضا، منشورات دار العودة، بيروت، 1983.
108. كتبي محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت764هـ): فوات الوفيات، تح: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
109. الكردي,عبدالرحيم:السرد في الرواية العربية المعاصرة,دار الثقافة, القاهرة,1992.
110. لحمداني,حميد:بنية النص السردية,المركز الثقافي العربي,بيروت ,1993.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

111.ـــــــــــــ: القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003.
112.لنبكوش، كريستيان: الذاكرة واللغة، تر: عبد الرزاق عبيد، دار الحكمة، الجزائر، 2002.
113.لوجون، فيليب: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
114.المبخوت، شكري: سيرة الغائب، سيرة الآتي – السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين– دار الجنوب للنشر، تونس، 1992.
115.مبروك، مراد عبدالرحمن: آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة "الرواية النوبية نموذجاً"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2000.
116.محمد، زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت).
117.محمد، شعبان عبد الحكيم: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث رؤية نقدية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010.
118.مرتاض، عبدالملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع240، 1998.
119.المسدي، عبدالسلام: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، 1983.
120.مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421 هـ): تهذيب الأخلاق، تح: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، 2011.
121.معلوف، لويس: المنجد في اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، (د.ت) .
122.مفتاح,محمد:دينامية النص(تنظير وإنجاز),المركز الثقافي العربي,الدار البيضاء, 1987.
123.المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1978.
124.المقريزي,تقي الدين أحمد بن علي(ت845هـ): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا:تح جمال الدين الشيال،دار قباء للطباعة والنشر, القاهرة,1984.
125.مقلد، إسماعيل صبري: العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1991.
126.ملحس، ثريا عبد الفتاح: القيمة الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط)،(د.ت).
127.مندلاو، أ.أ: الزمن والرواية، تر: بكر عباس، مراجعة:إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1997.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

128.منصور، إبراهيم محمد: قراءات في السيرة الذاتية في الأدب العربي، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.
129.منصوري، إدريس: أسلوب الرواية مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق لنجيب محفوظ، عالم الكتب الحديث، إربد، 2000.
130.ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مُكرّم (ت 711هـ):لسان العرب, دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
131.ابن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد (ت584هـ):كتاب الاعتبار، تح: قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، 1987.
132.ـــــــــــ: المنازل والديار، تح: مصطفى حجازي، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2004.
133.الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1999.
134.الموسوعة الفلسفية المختصرة, نقلها عن الانجليزية: فؤاد كامل وأخرون, راجعها: زكي نجيب محمود, دار القلم, بيروت,(د.ط),(د.ت).
135.المومني، أحمد: التعبئة الجهادية في الإسلام، دار الأرقم، عمان، 1986.
136.النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف، القاهرة، 1979.
137.النصير، ياسين: إشكالية المكان في النص الأدبي: دراسة نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
138.نعمة، كاظم هاشم: الوجيز في الاستراتيجية، شركة إياد للطباعة الفنية، بغداد، 1988.
139.الهدروسي, نور مرعي: السرد في مقامات السَّرقُسطي، عالم الكتب الحديث، إربد، 2009.
140.ورنوك، ميري:الذاكرة في الفلسفة والأدب، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007.
141.ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله (ت571هـ): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
142.ـــــــــــ: معجم الأدباء, إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: فاروق الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1999.
143.يقطين, سعيد:تحليل الخطاب الروائي, المركز الثقافي العربي,الدار البيضاء,1989.
144.ـــــــــــ:الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء,1997.
145.ـــــــــــ: السرد العربي- مفاهيم وتجليات، رؤية لنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المجلات والدوريات

1- البستاني، بتول حمدي: المعجم الشعري عند بشر بن أبي خازم: الطلل والحيوان – أنموذجان – (دراسة فنية)، مجلة التربية والعلم، بغداد، مج 17، ع 4، 2010.

2- جينيت، جيرار: السرد والوصف، تر: مهند يونس، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع2، 1992.

3- حني, عبداللطيف: الرؤية الجمالية للخطاب السردي المغاربي رواية "مدينة الرياح"للكاتب الموريتاني موسى ولد إبنو"أنوذجاً" مجلة مخبر تحليل الخطاب, جامعة مولود معمري تيزي وزو, منشورات دار الأمل للطباعة والتوزيع, مدوحة,تيزي وزو,ع5, 2009.

4- روايـة، الظـاهر: الـنص والبنيـة والسـياق، اللغـة والآداب، مجلـة معهـد اللغـة العربيـة، جامعـة الجزائر، الجزائر، ع 8، متلقى علم النص، 1996.

5- السـعدون، نبهـان حسـون: الوصـف فـي روايـة الإعصـار والمئذنـة لعمـاد الـدين خليـل (دراسـة تحليلة)، دراسات موصلية، الموصل، ع 13، جب 1427 هـ، تموز 2007.

6- سكر, راتب: مؤثرات الزمان والمكان في أدب أسامة بن منقذ, مجلة التراث العربي, اتحاد الكتاب العرب, دمشق,ع47,نيسان,1992.

7- الشمالي,"محمد فتحي" نضال: الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم أنموذجاً", دراسات, العلوم الإنسانية والاجتماعية, مج33, ع1 ,2006.

8- الشيخ، خليل محمد: سيرة جبرا إبراهيم جبرا الذاتية وتجلياتها في أعماله الروائية والقصصية، مجلـة أبحـاث اليرمـوك "سلسـلة الآداب واللغويـات، جامعـة اليرمـوك، إربـد، مـج7،ع 1، 1989.

9- الطواهية، فوزي خالد: الإقطاع العسكري (الحربي) في بلاد الشام في العصر الأيوبي (570-648هـ/ 1174- 1250م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، مج6، ع3، 2010.

10- عبد الجابر، سعود: صورة أسامة بن منقذ من خلال سيرته الذاتية في كتاب الاعتبار، المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، عمان, جامعة العلوم التطبيقية، ع16، 2000.

11- العروي، عبدالله: تداخل البنى السردية والتركيبية والرؤية للعالم في الغربة واليتيم، الطائع الحداوي، مجلة الأقلام، بغداد، ع6، 1987.

12- قداح، رؤى حسين: رحلة استسلاب الذات في رسالة ابن فضلان، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، طهران, ع 16، شتاء 2014.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

13- كاظم، عبدالله حبيب، وكاظم، سالم جمعة: الأنثى تبوح بسيرتها: إشكالية البوح وأنماطه في كتابة السيرة الذاتية النسائية، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، بغداد, مج15، ع1، 2012.

14- محمد، فتحي عبد العزيز: الاستراتيجية والتكنيك بين المسلمين والروم "الصدام المبكر"، مجلة كان التاريخية، مجلة الكترونية, ع9، السنة الثالثة، أيلول، 2010.

15- الهدروسي، سالم: صورة الفرنج العسكرية في النثر الفني العربي زمن الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، مجلة أبحاث اليرموك "سلسلة الآداب واللغويات"، مج 11، ع 1، 1993.

16- يقطين، سعيد: مدخل إلى تحديد خطاب الرحلة، مجلة الأقلام، بغداد، ع 5 + 6، 1993.

الرسائل الجامعية

1- الآغا، حسام حلمي يوسف: الأوضاع في فلسطين زمن الحروب الصليبية (492-690هـ/1099 – 1291م)، رسالة ماجستير غير منشورة، عزة، فلسطين، 2007.

2- بركة، ناصر: أدبية السّير الذاتية في الأدب العربي: بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعياتها الفاعلة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة لخضر- باتنة، الجزائر، 2013.

3- بلخن، جنات: نظرية السرد التاريخي عند بول ريكو، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2010.

4- الخروبي، غدير عثمان: المكان في رواية مدن الملح لعبدالرحمن منيف، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، 1993.

5- السقرات، براءة محمود، "كتاب الاعتبار"، أسامة بن منقذ دراسة تحليلية رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، مؤتة, الكرك، 2011.

6- ابو شارب,حازم فارس علي: فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار أنموذجاً,رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الشرق الأوسط, عمان, 2011.

7- المنصوري، نجوى: الموروث السردي في الرواية الجزائرية روايات "الطاهر وطار وواسيني الأعرج" أنموذجاً مقاربة تحليلة تأويلية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2011.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المواقع الألكترونية

1- الموسوعة البريطانية (باللغة العربية): شركة الموسوعة البريطانية المحددة، المملكة المتحدة، 1768 https://ar.m.wikipedia.org/wiki/ترجمة_ذاتية

2- ar. Swew.net/word-showhtm/?358315-18.

3- موسوعة القرى الاردنية www.maanl.com

4- https://ar.m.wikipedia.org/wiki/تل_ملح_(حماة)

5- https://ar.m.wikipedia.org/wiki/جان_جاك_روسو

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

The Autobiography in Kitàb Al 'I'tibàr of 'Usama Ibin Munqith Al Kinani (488H-584H)

Prepared y

ALKHAMSAN, HUSSAIN ALI R

Supervisor

Salem Mar'I Husain Al Hadrũsi'

The study was divided into an introduction, a preface, four chapters and a conclusion. The introduction addressed the significance of the topic, the rationale for selecting it, and previous literature examining Kitàb Al 'I'tibàr of 'Usama Ibin Munqith as the researcher benefited from previous literature and in developing the methods of the study.

As for the preface, the autobiographies of the book and writer were presented. As for the writer, his name, surname, nickname, birth, scientific and military background, his masters, books, death and relationship with Salah Addin were presented.

For the book, the researcher addressed its content, scientific and literature value were addressed. Then, the researcher examined the linguistic and terminological aspects of autobiography in Arabic traditional prose, its origins and suggested a definition for autobiography.

In the first chapter, the researcher examined the autobiography in Kitàb Al 'I'tibàr with respects for writer's motives and his desire to write the book; rendering the successes and failures while admitting strengths and weaknesses as the ego becomes weak and fails sometimes; while it is strong and successes in others.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

In the second chapter, the researcher presented the autobiography trends based on the content of the book examined in the context of the study. These trends were presented in the following domains: ethical, philosophical and mystic, political and social.

The third chapter was devoted to discussing the basic issues investigated by 'Usama Ibin Munqith in Kitàb Al 'I'tibàr. These were:

1- Life and death.

2- Ego and the other.

3- Objective and subjective.

4- Memory between imaginary and admission.

5- Admission and confession.

6- Submission and mutiny.

7- Human model (The Woman).

In the fourth chapter, the narration forms in Kitàb Al 'I'tibàr were investigated. The following topics were examined:

First: Narrator.

Second: The environment "The reality of place, time and society".

Third: Artistic and historical narration in addition to description.

Fourth: Narrative event; its elements and significance.

The conclusion was dedicated to presenting the most significant results obtained. Finally, a list of references and autobiographies was presented.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University